رواية

أسميتها مسك

الطبعة الأولى
1446 هـ
2025 م

اسم الكتاب: أسميتها مسك
التأليف: ختام محمّد
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 144 صفحة
عدد الملازم: 9 ملازم
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 25089 / 2022
الترقيم الدولي: 978 _ 977 _ 6903 _ 38 8

محفوظة جميع الحقوق

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

حكاوي للنشر والترجمة

hakayaproduction@gmail.com
01551751909 _ 01096476744

رواية

أسميتها مسك

ختام محمّد

الإهداء

إلى قلبي العزيز وروحي المتألّقة.
وإلى كل شخص يستحق المجد والاحترام.

كنت أسطِّر ذكرياتنا لأجلك؛ لأفاجئك برواية بقلمي، لكنك تفوقتِ عليَّ وفاجأتِني برحيلك، فأين أنتِ؟!.

بعدما خذلتكِ كثيرًا، سأعترف بأني خسرتها، كنت سأقول هي من تخلت عني، لولا أن الحديث الذي سمعته مؤخرًا ضايقها كفتاة تعرف قدرها وخدش كرامتها، فأجبرها على الخروج من حياتي.

لقد فعلت كل شيء لأقترب منها وهي عكسي، لا أنكر أنها أحبت وجودي وقربي منها، لكن ليس بطريقتي، كانت تفضل أن تتم علاقتنا بطريقتها طريق الصداقة، وأنا أصررت على الحب.

فلن أشتاق لها، بل سأموت اشتياقًا، أتمنى لو أني أستطيع البكاء، لكنني لا أعرف كيف يبكي الرجال، ما كنت متخيلًا أن يومياتي معها في يوم ما أجعلها في قالب رواية نهايتها كُتبت قبل بدايتها!.

ما توقعت لتلك الفتاة مكانةً في حياتي، فكانت كأي فتاة معجبة بي من جمهوري، غادرت حياتي كما دخلتها، كانت كامرأة واعية، حكيمة، تتصرف وفق بؤس الحياة بسنّها الصغير، أكبر من عمرها الحقيقي بمراحل، كيف لفتاة في الخامسة والعشرين من العمر أن تتحدث بهذا الجلاء!.

دائمًا كانت تقول لي: أنت أيضًا لا تخذلني، لا أريد أن ينكسر قلبي منك.

وثقت بي، فخذلتها بلؤم، والخذلان أشد من الفقد، فوجعها من

خذلاني أكبر من وجعي بفقدها.

هذه الرواية لن تكون توتة توتة خلصت الحدوتة، أود من الأخيرة أن تقدس في عقول جميع القرّاء، فهذه خاتمة ذكرياتي، ولحظات تمنيت لو أنها لا تنتهي، اعتدت أن أنهي رواية وأبدأ أخرى جديدة، لكن هذه سوف تكون الأخيرة والنهاية، كاسمها: "أسميتها مسك".

لكنّ النهاية في واقعي ليست مسكًا مثلها، فقد خسرت الكثير، حيث قررت إغلاق باب لن أرى نورًا من بعده، ثم ما شأني الآن بعالم الروايات والخيال بعدما احترق وقامت قيامته!.

كيف سأتخيل صراعًا أو أحداثًا بعقلي وطيفها يسكن فيه وتسيطر على خلاياه؟!.

فتخلخل عمارة الأحداث وتجعل التفكير يتعثر!.

كلانا أعمى الآن، أقصد أنا وحبيبتي، فهي لا تراني وأنا لا أرى غيرها، فإلى اللقاء، أو ربما، لا لقاء بعد ما حدث مؤخرًا، سأعيش في خيالي، حيث توجد هي، وسأترك لكم واقعكم المرير، العالم الذي لا حياة فيه لي بدونها، لقد لملمت الفوضى التي بداخلي وجمعتها على شكل حكاية، كُنتُ سأجعلها أول من تقرأ كتاباتي عنها، فهل ستقرأ حروفي يومًا ما؟!.

أخطأت في حقها كثيرًا، صفعتها خيبة تلو الأخرى، وكانت تسامحني في كل مرة، وكنتُ أستغل قلبها النظيف، كنت أجهل أنني أفقدها.

ما زلتُ أذكر اليوم الذي حادثتني فيه لأول مرة، يوم ٢٢ نوفمبر٢٠٢٢م، في تمام الساعة السابعة مساءً، وأنا جالس في مكتبي

أعيد النظر في روايتي الجديدة قبل إصدارها، تفاديًا لوجود خطأ لغوي أو تعبيري، يطيح جرس هاتفي المحمول ليكسر السكينة بداخلي ويقطع حبل أفكاري، يظهر على سطح الشاشة رقم دوليٍّ كنت قد تجاهلتُه أكثر من مرة، فتركتُ روايتي وأغلقت اللابتوب ودفتري متأففًا، ثم رددت على الاتصال، لأرى إن كان شيئًا هامًا وأتخلص من الاتصال غير المنقطع.

أجابت فتاة بصوتٍ رقيق عذب، رنّ في قلبي قبل أن يرن في طبلة أذني التالفة، تقول: مساء الخير، الأستاذ محمد عبد الحكيم الرندلّي؟

_ نعم، تفضلي.

_ منذ فترة طويلة أحاول الوصول إليك، لماذا لم ترد على اتصالاتي؟

_ عذرًا، لكثرة أشغالي هذه الفترة.

أجابت وهي تضحك: لا عليك، أمزح أمزح، أتفهم ذلك.

_ تفضلي، كيف أساعدك؟

_ نحن فرقة "Glory" "فرقة شموخ" من شباب وبنات، نهتم كثيرًا بالفنون والمسرح، أسسنا أنفسنا من نقطة صفر، تعبنا كثيرًا لأجل هذه اللحظة، لا أريد أن أشرح الكثير وأطيل عليك الوقت، المهم، نتشرف بدعوتك لحضور حفل الإعلان عن اسمنا ووجودنا، في القاهرة يوم الأربعاء ٣٠/ ١١/ ٢٠٢٢ الساعة السابعة مساءً، بحفل مهيب يضم كثيرًا مِن أنواع الفنون "المحترمة"، أعذرنا، لم نستطع أَن نوصل لك الدعوة فأنت لا تشارك عنوان منزلك لأحد، هل لك أن تدعمنا؟ قلت في عدم اكتراث: يشرفني طبعًا، لكن هذه الفترة صعب، ممكن بعد أن يفرغ

جدول أعمالي.

وأضفتُ بكبرياء: وربما لا أستطيع الحضور.

كنت وقتها مشغولًا حقًا، فأنا لا يمضي وقتي كله في الكتابة فقط، لدي حفلات توقيع، وزيارة معارض، ولدي موعد للاتفاق على نَشر روايتي الجديدة، وأيضًا أعمالي في التصوير وإخراج البرامج العديدة وكلها مواعيد مُخطَّط لها مسبقًا، لا أستطيع تأجيل أعمالي، ولا يمكنني الحضور بشخصيتي المعروفة جدًّا ولدي صيت في كل البلاد، لاحتفال بسيط، وبدون مُقابِل.

قابلتني بالرد وقالت بصوت شعرت برجفة الحزن فيه: تمام، شرف كبير إني سمعت صوتك، ثانك يو، وآسفة إذا أزعجتك.

_ يشرفني أنا كمان، وقلتُ متعجرفًا: احكي لي هتعملوا ايه، خليني أتشد، ممكن أأجل شيء من أعمالي وأقتنع بالحضور.

_ تمام.

وتابعت بحماسة:

احتفالنا اسمه "لا تستسلم"، سنتكلم فيه عن طريقنا الوَعْرة نحو شموخنا، وطريق اللا استسلام، وكيف أسسنا فرقتنا تحت ظل الظروف القاسية في بلاد الخارج، ولدينا العديد من الفقرات: كالدبكة الفلسطينية، ومسابقة رسم ومناظرة شعرية، ومسرحية كوميدية، وغيرها الكثير، فيه شخصيات عامة كثيرة مشهورة، ومِنهم مِن مختلف أنواع الفنون أيضًا، بحضور وزير الشباب سميح الوقَّار، والرسام وسام العواودي، والشاعر عبد الله المحمود، والفنان التشكيلي ربيع السمّار، والممثل المسرحي سمير

رباح، والمطربة سميحة مجدي وغيرهم الكثير.

كان صوتها المزين يغْوِيني، يشد انتباهي، يدعني أستمر في الحديث معها دون انقطاع .

قاطعتها: ما اسمك؟

ـ اسمي نهاية..

أجبتها بلهجتي: أهلًا يا مسك، أتمنى يكون مستقبلك في المسرح بتاعك زي ما بتحلمي وأكتر، ومتأسف إني مشغول الفترة دي، بس هحاول.

ـ يا رب، خد وقتك، براحتك.

ـ حلو أوي اللي هتعملوه، أحببت الفكرة.

وبكل ثقة قالت: جميعنا نستحق جدًا أن نشمخ بهذا الحفل.

سألتها: منين يا مسك؟

ـ من فلسطين.

(لم أتوقع أنها فلسطينية، جال في خاطري أنها مصريَّة من بلدي.)

فسألتها: طب الأوضاع عندك إيه؟ ولا عايشة براها؟

فوضع الاحتلال على فلسطين معروف بالعالم أجمع، وأنا مشغول جدًّا بالقضية الفلسطينية من صغري وتربيت على القضية، بحب فلسطين وناسها وأقصاها وتاريخها المشرف، ووجعي على حال فلسطين أكبر من عمر صغيرتي، وعندي زملاء عمل مِن فلسطين جاءوا لتعلم الإخراج والتصوير في الجامعة التي درست فيها وتعرفت إليهم.

فقالت: أنا أصلي فلسطينية مِن غزة، بس ساكنين في فرنسا، زي ما بتعرف الحروب وكذا، فاضطريت أهاجر للخارج (قالتها بنبرة حزن).

_ الله ينصركم، وترجعي لبلدك، إحنا منتعلم منكم الثبات والصمود ومنتعلم منكم الحياة.

_ الاحتلال سيزول وهذا وعد من الله في سورة الإسراء.

_ طبعًا، دا يقين والقضية قضية كل عربي.

_ كلنا إيد وحدة ولا تفرقنا الحدود.

فسألتها: أين فرقتكم يا مسك؟ لعلني أطول الحديث مع هذا الصوت الذي يقطر عذوبة.

أجابت: أسسنا فرقتنا في فرنسا، ونحن كل أعضائها نعيش في فرنسا.

_ طب لي عملتوا الاحتفال في مصر؟

_ هناك لا يوجد الكثير من العرب، واسمنا لم يلمع بعد، فقررنا نبدأ مشوارنا في بلد عربي، قصتنا طويلة، فأغلبية التصويت كانت لمصر أم الدنيا لأسباب عدة.

_ هايل، تنورونا وتشرفونا.

أحست أنني استرسلتُ معها في الكلام، فأضافت: شرف كبير لإلي الكلام معاك، شكرًا.

_ العفو، بالتوفيق يا مسك.

وانتهى الاتصال الأول، فحديثها الأول معي ليس مجرد صدفة عابرة،

أو كلامًا في زمن عارض، أو لحظة مَنسية، أشكر كل شيء جعلني أجتمع بها، لوَّنت حياتي،

لا تشبه أية من النساء، تتصرف بعفوية مدهشة، امرأة تجعلني أشعر بزلزال في كياني تعيد به ترتيب الأشياء، كأنها خرجت من فوهة بركان على هيئة زهرة تفتحت لتنبت حياةً جميلة في واقعي، كان ظهورها في حياتي كرقصة السالسا الغزلية المليئة بالحيوية والحياة، كلذة إيقاعات موسيقى الفالس الكلاسيكية الراقية.

إلى هنا كان الأمر طبيعيًّا، لأكن صادقًا، لم تشغل بالي كثيرًا ولا فكرت بها أساسًا، ولا رأيت إذا كان يوم الأربعاء لديّ أعمال أم لا.

***

بعد يومين ٢٤/ ١١/ ٢٠٢٢:

نشرتُ على منصة إنستغرام صورًا من آخر حفل توقيع للرواية السابقة التي كان عنوانها "أسرار منزل الدوق"، أتباهى بجمهوري الكبير، وأشكر متابعِيَّ على حضور هذا الحفل الكبير، قامت صغيرتي بالرد على الصور قالت: يا ريتني كنت من الحضور ووضعت قلب أبيض، ميَّزت رسالتها واسمها من بين العديد من الرسائل.

قمت بالإعجاب برسالتها وأردفتُ: يا ريت، دا يشرفني وكان ممكن يكون حفل مميز بحضورك.

_ شكرًا، الله يسعدك.

_ تعرفي؟

_ اي؟

_ أنا مشغول جدًا فعلًا، لكن احتمال أحضر الحفل بتاعك.

_ تأكد أني هكون سعيدة.

_ دي أمنيتي.

_ ؟؟؟

_ أقصد إني أشوفك سعيدة.

_ تشرفنا والله، وإن شاء الله يجمعنا أعمال مع بعض كمان.

_ يا رب، يشرفني.

انطباعي الأول عنها كان مريحًا جدًا، تعجَّبتُ مِن نفسي أني ما زلت مستمرًا بالمراسلة معها، لماذا هي فقط من بين ملايين من جمهوري؟

من بين آلاف من رسائل الشكر والترفُّع والغزل المُكدَّسة في طلبات المراسلة، لماذا هي من بين مئات المعجبات التي تطاردني في الشارع، ورغم أنني متزوج!.

ثم وجدتني أبادر بالتعرف إليها، سألتها: إنتِ بتدرسي ايه؟

_ هههههه، دا سؤال جارح، ليه قصة طويلة.

_ أحب أعرفها.

_ حاضر.

كانت أحلى حاضر أسمعها مع أنها رسالة مكتوبة، يتلهف قلبي لرؤية

أسمها (يكتب..) وأنا أنتظر حروفها التي تسقط على قلبي، فقالت:

_ خلصت ثانوية عامة كنت ما زلت في غزة بمعدل امتياز جدًا، يشرف ويرفع الرأس، كانت الحالة المادية سيئة فقررت ما أكمل دراستي، في السنة نفسها شُنَّت حرب على غزة من الاحتلال، راح ضحيتها الكثير، منهم أمي وأبي وإخواني الله يرحمهم، وبقيت وحيدة.

تأثرت وقلت: الله يرحمهم.

ثم أكملت تقول: سافرت أو ممكن تسميها هاجرت مع مجموعة كبيرة من الناس إلى فرنسا، كونت صداقاتي منهم، ودرست في باريس تخصُّص برمجة لغات بطريق صعب وشاق، كان نفسي تكون دراستي في بلدي، لكن الحمد لله اختيارات ربنا أفضل، فابتديت أشتغل على نفسي ولقيت شغفي بالمسرح والفن.

فقلت لها بمدح: أنتِ بطلة.

_ لسا قصتي أطول بكثير مِن هذه.

_ أحب أعرفها بالكامل، إذا تحبي؟

_ تمام يشرفني، لكن لا أفضل الآن.

_ تحبي امتى؟

أجابت بجملة عشقتها: بعد رحلة من التفكير.

_ ليه؟

_ مش سهل أتكلم بخصوصيتي، وخصوصًا أنها مش سعيدة، فبحب أخبيها فقلبيه.

ـ مممم، أتفهك، لكنني اخترت الغوص بأسرارك، فهل تقبلين؟

ـ أعتقد أن الوقت مبكرٌ، لذلك امنحني كثيرًا من الوقت.

فقلتُ لها: ليست كل الموازين قابلة لأمور الوقت، أحيانًا نجد اللقاء نفسه هو الوقت المناسب.

ـ أتفهم ذلك، لكنني لستُ جاهزة في الوقت الحالي.

ـ على مهلك.

وتابعت: احكي لي يا مسك بتقضي يومك ازاي؟

ـ كنت من المسرح للبيت ومن البيت للمسرح، برتب البيت وبجهز الأكل بروح الجيم وكل فترة منتلاقى احنا والصحاب في مطعم أو مقهى، الروتين نفسه، لكن الآن الوضع مختلف قليلًا زي ما بتعرف تجهيزات الحفل وكدا، مضغوطة كثير بالشغل.

ـ وفين القراءة من يومك؟

وهنا انتظرت ردَّها مطولًا، أعتقد أن صغيرتي نامت وتحلِّق في أحلامها الهانئة، ولا تعلم أن هناك أحدًا عقله ممتلئ بها، كيف انجذبتُ إلى الحديث معها وأنا لا أعلم عنها شيئًا؟!.

لا أعلم لماذا أفكر بها كثيرًا؟ أشعر بأني لم أكتفِ منها، أريدها بين رسائلي دائمًا، أحتاج أن تحادثني أنا فقط، ألا أشتاق لها ولا أملَّ منها.

***

في اليوم التالي ٢٥/ ١١/ ٢٠٢٢:

في الساعة الثامنة وأربع عشرة دقيقة صباحًا، استيقظت على وقع صوت الهاتف، كان من فضائية الإم بي سي: ألو، أستاذ محمد، صباح الخير، أتمنى لا أزعجك في هذا الوقت، لكنني مضطر.

بصوت رخيم ينم عن استيقاظي قلت: صباح الخير، تفضل، إيه حصل إيه؟

ـ طلبوا تأجيل حلقة البرنامج اليوم ليوم الأربعاء القادم ١١/ ٣٠ في تمام الساعة السابعة مساءً، موافق؟ ـ استنى هشوف عندي ايه أعمال يوم الأربعاء.

ـ تمام.

قمت بكسل وأحاول السيطرة على عيوني الملتصِقة، أحضرتُ دفتر الملاحظات خاصتي من درج مكتبي، وجدتُ الخميس فارغًا مِن الأعمال فقلت له:

ـ تمام، معنديش مانع.

ـ تمام، شكرًا لتفهمك.

أغلقتُ الهاتف، وقفت أمام نافذتي الزجاج الضخمة وبعد أن قُمْت بحركات التمطي رحت أتأمل صباح بلدي الجميل، وأراقب زرقة السماء الغامقة، ثم ذهبت لأسترخِي في البانيو بماءٍ دافئ كما اعتدتُ يوميًا، وبعدها جاءت زوجتي بالفطور، أفطرتُ وجلستُ في مكتبي بعيدًا عن أطفالي، ليهدأ عقلي وأستجمع كلماتي قبل لقائي في الإذاعة التلفزيونية على قناة صباح العربية.

شرعت بفتح هاتفي قليلًا فوجدتُ ردًّا من مسك على حديث الأمس، كانت بتوقيت متأخر تقول:

ـ بصراحة، أنا مش زي الناس اللي بتشتري كتب وبتقرأ، صباح الخير أولًا،.

بعثتُ لها: صباح الخير عزيزتي.

وتابعت: بس القراءة وعي، حتى لو كانت روايات، أكيد هتلاقي سطر يوصلك رسالة في حياتك!.

فأجابت: أنا من فلسطين، يعني احنا الفلسطينيين نحصل على وعينا من حروبنا ومن خيباتنا وأحزاننا، ومنسمع رواياتنا من زوجات الأسرى وأمهات الشهداء ومن أطفال الحرب.

تعجّبت من كلماتها القيمة، فقلت مؤيدًا: معاكِ حق، أنا حزين جدًّا على فلسطين، الله ينصركم.

ـ اللهم آمين.

استطردتُ الحديث فقلت: هتحكي لي قصتك؟ حابب أعرفك.

لعلّني أنتشي فرحًا بحضورها بين رسائلي قبل مقابلتي الصوتية على فضائية العربية.

بعد خمسة دقائق ردت: أنا حابة أخبيها فقلبي.

فقلت: لا، هتخبيها فقلبي أنا.

ـ لكن مش بسهولة، هتتعب معايا.

ـ حاسس إني متطفل زيادة عليكِ!.

ـ لا، لستُ متطفلًا، لكنني مررت بمواقف عدة تكلمت بها عن نفسي والظروف التي مررت بها، وللأسف كنتُ مخطئة، ولسه ما تجاوزت الأيام السابقة.

ـ ممم..

فهمتك.

ـ فحاسة إنه من الصعب عليّ أرجع أفتح مواضيع كنت أتمنى الخروج منها، وممكن أرجع أتوجع إذا تكلمت فيها تاني.

فقلت ببساطة: لكن حبيت أكون قريب منك، آسف لو دا زعلك.

ـ لا ما في مشكلة، لم أمانع، لكن اتركني للزمن..

ـ خطفتِ قلبي بجملتك هذه.

ـ بتعمل إيه دلوقتي؟

ـ بستنى أطلع على الهواء على شاشة العربية بلقاء صوتي.

وإنتِ؟

ـ بالتوفيق يا رب، أنا بجهز نفسي هروح الجيم.

وأضافت: أنا بعرف أتكلم مصري كويسه.

ـ أنتِ رهيبة يا مسك.

ـ ثانك يو..

ووضعت القلب الأبيض خاصتها.

***

في المساء بعد الساعة الحادية عشر:

متيَّم أنا بها، أشتاق للحديث معها بشغف، أعاتبها في سري، كيف تنام دون أن تقول لي تصبح على حب، نعم، لم نصبح مقرَّبَيْن بعد، لكن هناك شيء يجذبني لها، لا أعلم ماذا فعلت لي لتجعلني أنسى من أنا، أنشغل بالتفكير بها وأكسر القيود لأجلها لمجرد مواصلتي بالحديث معها.

أتراني أحببتها؟

لا أعلم!.

أحدث نفسي كل ساعة وكل دقيقة، وأتساءل مجددًا: أأحببتها؟ وأجدني لا أعلم الإجابة أم أنها ألقت عليّ تعويذة سحر أسود من تعاويذ الساحرة أم عباس، أغرق في مستنقع أفكاري وأجدها تسبح في عقلي بجميع جوانبه مثل حورية خرجت من مائها ودخلت مباشرةً بحر رأسي دون استئذان، أتمنى أنها جميلة بجمال رنَّة صوتها وكلماتها، سأحاول جاهدًا كي أرى جميلتي مَن تكون، مَن أحب قلبي قبل أن يراه.

رحت دون تفكير أرسلتُ لها: مساء الخير، تقبلي تكوني صديقتي؟

بعد نصف ساعة رأت رسالتي ولم تعطني جوابًا ولا إشارةً، تجاهلت كلامي!.

أحسستُ أني عبء على قلبها بهذا الطلب المفاجئ.

وبعد صمت دام ليومين (٢٧/ ١١/ ٢٠٢٢) أجابت:

وبينما كنت أكتب اسمه وأعلقه بجانب حطام مجموعة مِن قلوبي المنكسرة لملمتها مع كل خيبة ووضعتها على رف، متباهية باسمه أمام خيباتي المتراصّة، خذلني، وكسر قلبي، أحزنني فوق حزني حزن وفوق ألمي ألم، قلبي يعتصر ندمًا، ليتني أستطيع لطم وجهي لطمة تعيد عقلي إلى رأسي، وينعدل اتزاني الأخرق، كم أنا بلهاء بحق نفسي حين سمحت له بدخول حياتي.

فهمت من كلماتها أنّ شخصًا ما كان صديقها/ حبيبها خذلها وأحزنها.

فقلتُ متأسفًا: يا روحي، متأسف جدًا.

_ لا بأس، فمع مرور نصل الحسام منتصف قلبي ما زلت أعيش.

_ عشقت كلامك ووقعت في غرام قلمك، اختيارك لكلامك وكأنك قررتِ غزو قلبي والفوز به والوقوع فيكِ.

_ شكرًا والله، لكنني لا أريد الفوز بقلبك!.

_ بحس إنك مش حابة كلامي لما أحاول أقرب منك!.

أريحلك مقربش منك؟

_ يشرفني قربك، لكن بتمنى كأصدقاء فقط.

دون تفكير قلت لها: أحببت ظهورك في حياتي وسمحت لك باجتياحي، أحببتُ فيك بياض قلبك، حركتِ حقيقتي التي خرجت بعد سباتٍ عَميق بعصاً حروفك وصوتك، وهي إن أنا تكلمت وأنا ناسي إني

شخصية عامة!.

قالت ببراءة: احم احم..

بديت أخجل.

_ إذن زاد جمالك، وأحببت كلامك الذي كتبتِه.

_ ياه، شكرًا، هذه سطور بسيطة بالنسبة لعلمك ورواياتك.

_ لكنني أصبحت من جمهورك ومن معجبي قلمك في الكتابة.

_ واو، أشعر أني أريد البكاء.

_ خجل، ثم بكاء، ستملكين جمال العالم كله.

وبدأت بحيلة لأجعلها تريني مَن هي فأضفت: وكدا تحمست أشوفك يا صديقتي.

_ لسا بكير على ما تشوفنيه.

_ براحتك، لو جمهوري عرف، هيخطفوكِ من الغيرة.

_ بعرف، بس هتشوفني باحتفال فرقتنا.

لطمت جبهتي، تذكرتُ الاحتفال، وتذكرت بأني وعدت فضائية الإم بي سي بحضوري على الهواء مباشرةً عبر شاشاتها، وفي توقيت الاحتفال نفسه، يا الله، ماذا أفعل؟ كيف نسيت احتفال مسك، هل ستحزن مني؟ هل ستشعر بأني خذلتنا ونحن بأول طريقنا نحو التعارف؟ كيف سأثبت لها الآن بأني لستُ متفرغًا؟!.

خفَّفتُ توتري، وباغتها قائلًا: أرني أحب صورةٍ لديكِ.

قالت: مع الوقت هتشوفني وتعرفني.

قلت لها: أكره الوقت، أحب أن يكون بيننا طريق لطيف ليِّن، بلا تعقيدات وصعوبات يكفينا صعوبة العالم وقبحه.

_ بتشرف طبعًا.

_ إذن لنسهل الطريق بين قلوبنا، لسنا بحاجة لوقت، نترك القلوب تجيب دون حاجة للتفكير، أريد أن أرى من تكون صديقتي.

_ طب عايزة أعرفك أكتر بالأول!.

عرفني بحضرتك.

_ قلت لها بتكبُّر: حضرتك؟ يبقى اسألي جوجل عني.

_ فهمتني غلط، انتو المصريين بتحكو "حضرتك" وأنا كتبتها.

_ ممم، يا مسك، حضرتك دي للكلام الرسمي، واحنا هنتفق إن مفيش ببيننا كلام رسمي، وأنا إعلامي وكاتب روائي، ليا سبع روايات ناجحة الحمد لله في الوطن العربي.

_ ما شاء الله، بالتوفيق يا رب.

لكنني لم أقصد إنك تعرفني بنفسك بهذه الطريقة، لا يهمني مركزك وشهرتك بقدر ما يهمني شخصك وعفويتك وصدقك معي، عايزة أعرف محمد وليس محمد الرندلّي، فحاسة لسا بكير أشاركك صور ليا، فهمتني؟

_ فهمت، إنتِ قرأتِ عني في وسائل التواصل؟

_ ايوه، أنا عارفاك وعارفة مين بتكون، عايزة أسمع منك عنك، مثلًا

هيك:

اسمي نهاية عندي ٢٥ ربيعًا، ساكنة في فرنسا من أصول فلسطينية، بحب المسرح الفن، بعشق الحلويات، وبحب التصوير جدًّا، بحس نفسي مميزة، ما حدا بشبهني ولا بشبه حدا، الكل بحبني بمقابل وأنا بحب الكل بلا مقابل.

وأنا شخصية حساسة بكَّاية، واه..

بحب الطبيعة والبحر.

ما زالت حروفها وكلماتها تجذبني فقلت: الله، حبيت، كلامك مريح، فيكِ شيء يخليني فرحان.

قالت: بدون غرور أنا أُسمِّي نفسي "سفيرة السعادة".

_ أووووه إذن وأنا من الآن سفير سعادتك، صديقكِ الذي لن يدعك للقيود.

_ لسا ما أدخلتك دائرة صداقتي!.

عندي شرط لكي تكون صديقي، جاهز تسمعه؟

_ قولي.

_ ما بحب الكبرياء بين الأصدقاء أبدًا، بتفشل صداقاتي مع ناس بتكابر عليَّ، فبضطر أنهيها بدون سابق إنذار ولا رجوع، فهل تستطيع أن تخلع رداء الكبرياء معي؟

_ موافق طبعًا.

_ حلو، أنتَ هتيجي الاحتفال؟

_ طبعًا إن شاء الله هاجي.

_ تقدر توعدني وما تخذلني؟

_ طبعًا، ودا وعد مني.

_ أنا بحترم الوعود جدًا، يا ريت ما تخذلني.

_ هاجي علشانك يا مسك، وعد.

_ علفكرة أنت خفيف لطيف، أنا ما بكتب القلب الأبيض لأي أحد، فلما وصلك اعرف إن أنتَ مش أي حد يا صديقي.

ومجددًا وضعت لي القلب الأبيض.

قلت لها: شكرًا يا روحي، عايز أشوفك بصورة حالًا.

_ من حقك تعرف مع مين عم تحكي، ويشرفني جدًا إنك تعرف شكلي كمان، ومتحمسة جدًا إنك تشوفني، لكن ايه رأيك تتركها للزمن؟

_ للزمن؟!.

أنا يا صديقتي الشيء الذي لا يكون لي يبقى بلاش، أنا حاسس إننا مش منقرب كأصدقاء افتكرت هتنبسطي بمحاولة تقربي، لو جمهوري عرف هينتحر من كتر الغيرة، عمومًا، انسي أني طلبت، وأنا فوجئت إني نسيت أنا مين وبتكلم كمحمد وبس وبطلب وبلِّح، لدرجة إني استغربت من نفسي، مينفعش يحصل كده وأنا شخصية عامة.

_ بالعكس يا محمد، جميل جدًا إنك تكون حقيقي وعفوي.

بذكاء مُتقن قلت لها: حسيت إني قللت من اسم "الرندلي" الدليل على القوة والصلابة، اللي عمره ما فكَّر يطلب كده ومعجباته بتطارده، على العموم نقفل الموضوع دا خالص، ولا كأنه حصل.

وأضفتُ لأشعرها بالذنب: وأنا آسف لنفسي.

_ لا، لا، أنتَ كده هتحسسني إن أنا السبب بأسفك لنفسك، أنا آسفة، لكن والله عندي عقده وخوف من هذا التقرب.

_ الكلام دا تقوليه لحد عادي، مش ليا أنا، علشان كده آسف لنفسي.

نجحتُ بأسلوبي فقالت لي:

_ طب هبعت لك فيديو صورته لنفسي، فأنا ما بحب أصور نفسي صورة جامدة بابتسامة مصطنعة، بحب أصور فيديو على أغاني بحبها، لكن قبل ذلك أريد منك أن توعدني بشي!.

_ ايه؟

_ إنه نضل أصدقاء فقط.

_ بمعنى؟

_ بمعنى لا تقع في حبي.

_ اووووه، يا واثقة!.

_ بصراحة!.

ترددت أشاركك صورة لي لأني خايفة تروح صداقتنا.

_ وليه هتروح لما أشوفك؟

قالت بثقة: لأن مش كلماتي الجميلة فقط، وأنا كمان جميلة، خايفة تحبني، وتخذلني وأتكسر، خايفة من إحساسي وعمره إحساسي ما يخيب.

شردت أفكر في ماذا فعل لها صديقها/ حبيبها السابق حتى أصبحت لديها هذه الرهبة، والخوف من التعلق، لا شك أنه زرع فيها خذلانًا تخشى من اليد التي تمتد إليها من بعده حتى ولو كان صادقًا.

وربما لتقول لي إنها ليست رخيصة كما يمكن لخيالي الشرقي أن يوحِي لي.

بمخاتلة قلتُ: الطبيعي إن إنتِ توقعي فحبي.

_ لا لا، أنت صديقي، حب أخوي ممكن ، لكن تأكد أنه ليس شيئًا آخر.

_ لكن ما بيننا أسمى وأرقى، وأقرب من حميمة الحب.

_ لا، كده كتير، هتخليني أتراجع.

_ تراجعي، أنا مش بترجاكِ!.

_ طب قلي، هتوفي بوعدك ونضل أصدقاء؟

_ لا، مضحكاني.

_ لي، أنا بتكلم جد!.

_ الحب يا صغيرتي أن يكون بيننا تلامس وقرب، فطلبك أساسًا مِش متاح!.

_ بالعكس!.

الحب يشتعل بالبعد، فكيف يكون الشوق؟ أليس بالبعد؟!.

ـ هذا حب حكايات، اسأليني أنا، لكن الواقع الحب يشتعل بالقرب، بالعناق.

ـ رح يجي يوم وهتشوف إن كلامي صحيحه.

وتابعت: عندي كمان شرط ممكن؟

ـ لا أقبل الشروط.

ـ إذا حبتني يا ريت تحتفظ بيه بينك وبين نفسك وما تشاركني كلام الحب!.

ممكن؟

ـ يا بنتي مالك إنتِ، قولت لك لا أقبل الشروط.

ـ أنا كده طفلة بحب أغلبه.

وبعد ساعتين فاجأتني بفيديو تغني فيه مع الأغنية، فتاة قمحية البشرة، فمها صغير، في عينيها بريق مِن الذكاء والحزن، تمتلك رقبة طويلة، وشعر قصير أسود قاتم لامع، قوامها رشيق، جميلة جدًا، جمالها فاق توقعاتي.

فأرسلتُ لها: عادية، مش حلوة خالص، قال أقع في حبها قال!.

يغلبانه، مات شغفي من وحاشتك.

عدتُ أكرر الفيديو لأرى صغيرتي مِن جديد، لكنَّه اختفى بمجرد أني أنهيت الوقت المحدد كان ظاهرًا لمرة فقط، آه يا مسك، ماذا فعلتِ لي!.

***

في صباح اليوم التالي (٢٨/ ١١/ ٢٠٢٢)

ردت على رسالتي: صباح الخير، رائع جدًّا إنك شفتني وحشة، يعني أتطمن إنه هنضل أصدقاء.

رددت بسرعة: صباحك حلو زيك، تعرفي؟ حقيقي أنا سعيد بقربنا، هتجننن وأسمع صوتك تاني.

ـ صباح زيي ازاي مش كنت وحشة؟!.

ـ نسيت صح وحشة جدًّا.

ـهه

كتبتها وذهبتُ لأستحم بسرعة وألبس بيجامتي، ومن سعادتي مِن مسك قبَّلتُ أطفالي وزوجتي اللامبالية، أحضرت فطورًا جاهزًا، انتهيت ودخلت مكتبي، لم أكمل تدقيق روايتي، لا يوجد شغف لروايتي كما كنت دائمًا، لدي شغف لمسك الآن، أمسكتُ هاتفي ووجدت رسالةً منها تعقيبًا على كلامنا، تقول: لسا مشفتش قلمك عني بكلامك!.

قلت: لازم تكون صورة أمامي لأوصف تفاصيلك، ليست ثوانٍ معدودة.

قالت بدهاء: الكاتب لديه غرف مِن الخيال، ألم أُوجَد في غرفة؟

ـ ولكنك واقع، والواقع أجمل من الخيال.

وأردفت: لكن لأجلك سأصنع لك، سأكتب عنك وآخذك معي إلى عالم قلمي، حتى تذوبين من مشاعر كلماتي، كونك أنْسَيْتِني مَن أكون، وتعاملت كشخص متجرد من ألقابه وتاريخه، بشرط أن تكون صورة لا

تختفي أمامي.

قالت بمكر: لا أقبل الشروط.

ـ إذن ترفضين قلمي!.

ـ لا، وألف لا، استخدم ذاكرتك وأتشرف بقلمك وكلماتك.

ـ لا، ومليون لا، فأنا أنتظر إلهامي، وقلبي متحمس لذوبانك.

فأرسلت لي العديد من الصور والفيديو التي تخُص صغيرتي الجميلة، دون أن تغلّبني أكثر، ولم تتردد كثيرًا هذه المرة، في عمق قلبها المحطم أحسستُ أنها تعلقت بي كأملٍ رقيقٍ ينبض بالحياة، وينابيها لتجاوز الألم والسعي نحو التخطي والشفاء، صغيرتي التي لمجرد أن رأيتها، أتأمل صورها، أدقِّق في ملامحها، يخفق قلبي، فيهدأ بداخلي الضجيج، ومن هنا أجد وصفًا لملامحها، إنها "هادئة" وباعثة للهدوء، أعيد التأمل، يزداد خفقان قلبي، وأرتاح، وجدت راحة في ملامحها، الآن أفهم تصرفاتي غير المنطقية، كنت متعجبًا من كوني مخطوفًا تجاه فتاة، مع أن الجمهور يطاردني ولا التَفِت، معها كسرت قوانيني ونسيت اسمي وتاريخي، وتجردت من كل شيء، والآن فهمت السبب، لأن معها الراحة والهدوء.

فكتبتُ لها: مثل بداية ظهور الخيط الأبيض بعد ليلٍ قاحل، والراحة بعد العناء، وجهكِ كمرآة الزجاج اللامعة، لديك ابتسامةً ساحرة تمتلكين بها ابتسامات العالم كلها، مميزة أنتِ كشمعة في الظلام، كوردة في صحراء قاحلة.

تزدادين جمالًا بخجلك الذي يكسب وجهكِ اللون الورديَّ

وابتسامتُكِ العفوية..

ينقطع حبل أفكاري، هاتفي يرن، أووه نسيت، لدي موعد تصوير وإخراج في برنامج على التلفاز يبدأ بعد ساعة من الآن، بدَّلتُ ملابسي وركضتُ مسرعًا إلى موقع التصوير، وصلتُ في الوقت الصحيح الحمد لله، الجيد في الموضوع أن الحلقة كانت غير مباشرة، لأني أخطأتُ مرارًا، وتلعثمتُ كثيرًا، لم يحدث هذا معي قط خلال مقابلاتي!.

أعطوني أكثر من استراحة أعيد فيها تركيزي، لكنني كنتُ أشتتهُ أكثر، حينما أختلسُ النظر كل ثلاث دقائق إلى صفحة وجهها الطفولي الهادئ، أنظر بشغف لصورها وفيديوهات لها صورتها بعفوية، لقد صدق القول: اتبع قلبك، وقلبي مطمئن لها وبها ومعها، أيقنت بأني واقع في الحب كأنني عاشق جديد للمرة الأولى، كنت أغادر عالم الروايات وأسير باتجاه منصة الحب، لكنني لا أستطيع أن أقترب منها!.

فهي لا تريد حبًا وألا أبتعد عنها أيضًا!.

لا أستطيع أن أتحمل ذلك.

تشتت عقلي كثيرًا وأنا مشغول بمِسك، لم تنفعني الاستراحات في التركيز، بقيتُ طوال اليوم غير مُدرِكٍ للذي يحصل معي، أخفقتُ في تسجيل الحلقة بشكلها الصحيح للمرةِ الأولى في حياتي، تم تمديد أيام التصوير ليومين آخرين إذا بقيت على هذا الحال.

عُدتُ في المساء إلى بيتي، استقبلتني زوجتي، لحظة!.

لوهلة نسيت أنَّ لديَّ زوجة وعائلة، أصبح كل شيء مبعثرًا، وأنا، أنا

بخير ولست بخير، تائه بين الأشياء.

قلتُ لزوجتي: أنا مشغول جدًّا في الليل، سأحاول أنهي روايتي، لا أريد الإزعاج.

ودخلتُ مكتبي، أمامي دفتري واللابتوب خاصتي، قررت أن أغلق هاتفي وأتفرغ للرواية، فقد اقترب موعد تسليمها، لا أريد عقلي يتشتت بمسك، بقيتُ طول الليل أدقق في روايتي وأنهيها بشكلها الكامل، تمت بحمد الله الساعة الرابعة فجرًا.

أقدمتُ على فتح الهاتف وأنا مُتوهِّج بالحماسة، لأرى مسكًا إن تركت لي رسالة.

كتبت ردًا على وصفي لها: الله، حلو أوي، حبيت، شكرًا.

فرددتُ قلت: تعرفي؟ إنتِ مبهجة، صورك فرحت قلبي.

ولا أي شيء يبهجني، ولو تركتُ قلمي يصفك ويتحسس ملامحك فسنسافر بعيدًا في بحور الذوبان، فأنتِ ملهمة للكتابة حتى ذهاب العقل.

متأكد أن صغيرتي نائمة في هذا الوقت.

جلست أتصفح صفحاتي على وسائل التواصل الاجتماعي وأنشر تارة في القصص عن رواياتي وأرد على تعليقات جمهوري تارة أخرى إلى أن غفوت على كرسي مكتبي.

استيقظتُ بعد أربعين دقيقة على صوت أذان الفجر، أشعرُ بالبرد، أخذت حمامًا ساخنًا ولبستُ بيجامتي، صليتُ ركعتين لله شكرًا على ما أنا

عليه، وسألت الله التوفيق في مستقبلي وروايتي القادمة، ثم صليتُ الفجر، قرأتُ قليلًا من صفحات القرآن الكريم، أيقظتُ زوجتي تصلِّي وطلبت منها ألا توقظني في الصباح، سأنام جيدًا.

***

أيقظتني زوجتي في الساعة الخامسة والنصف عصرًا، شربتُ كأسًا مِن القهوة، صففتُ شعري، ولبستُ بدلة رسميَّة بلون كُحلي، رششتُ عطري، أتجهَّز وأذهب إلى مَوقع التصوير.

وأنا في الطريق تذكرتُ الاحتفال الخاص بمسك، دستُ على الفرامل فجأةً كدت أن أتسبب بحادث سيئ، صفقتُ كفتيَّ بعضهما ببعض وتأففتُ من نفسي، ماذا أفعل الآن؟ ماذا إن أحسَّت مسك بالخذلان وكرهتني؟ والمعضلة أنني لا أستطيع تأجيل التصوير، فهي حلقة مباشرة، تعكَّر صفو مزاجي وأكملت الطريق إلى التصوير، وصلت إلى الأستوديو، عملولي في وجهي شيء من المكياج السينمائي، جلستُ في استراحة خمسة دقائق قبل الظهور أمام كاميرات الشاشة المباشرة، فتحت هاتفي المحمول وضغطتُ على اسم مسك متوترًا، قررت أن أتصل بها وأعتذر عن الحضور، تراجعت، فهي الآن تتجهز لحفلها الأول، لن أعكر حماستها بعدم حضوري، سَكَنَ عقلي عندما سمعتُ اسمي من المخرج يقول: يلا يا محمد نبتدئ الحلقة..

المذيعة: معانا ومعاكم الكاتب محمد الرندلِّي، إعلامي وكاتب روائي مصري، لديه سبع روايات ما شاء الله ناجحة على المستوى الأول في

الوطن العربي، أهلًا بيك في برنامجنا النهارده شرفتنا ونورتنا أستاذ محمد.

أنا: أهلًا بيكِ، أنا سعيد إن أنا هنا النهارده، شكرًا ليكم على الاستضافة الرائعة وشكرًا لجمهوري الحبيب اللي بتابعوني من خلف الشاشات.

_ أستاذ محمد، احكي لنا إيه شعورك وأنت رقم واحد في مصر والوطن العربي كله..

_ سعيد جدًا طبعًا، وكان طريق حقيقي صعب جدًّا إن وصلت لهنا، هو ثمرة تعب وجهد لا أحد له علم بكمية الضغط اللي كنت بمر بيها مسبقًا.

_ ايه الصعب مثلًا؟ يعني ايه أكتر جزء حسيت إنه صعب في رحلتك مع الكتابة؟

_ إني كنت بتعب بالتأليف وبالآخر رواياتي تترفض.

_ تترفض!.

_ أيوه رواياتي اترفضت كتير، أكتر ما بتتخيلي، فرسالتي هنا لأي شاب أو فتاة عندهم حلم في التأليف والكاتبة بشجعهم على الاستمرار، حتى لو اترفض عملك مرة واتنين وتلاتة وأكتر، المهم أن ننظر لنهاية الطريق وما وصلنا له دون التفكير بالأشواك التي داست أقدامنا العارية عليها.

واستمرت المقابلة بسؤال وجواب عن تاريخي ورحلتي بعالم الروايات نصف ساعة وانتهى اللقاء، هرعتُ إلى السيارة لأذهب إلى الاحتفال، كان الطريق يضجُّ بأزمة سير خانقة، هكذا دائمًا تكون العاصمة، أحاول جاهدًا أن أسرع وأصارعُ السيارات وأدخل في مساحات ضيقة من بين الازدحام،

فالمسافة بيني الآن وبين المسرح خمس عشرة دقيقة، نشب خلاف بيني وبين سائق نعتني بالمُتهوِّر، نزلتُ لكي أضاربه، تعصبتُ، وشعرتُ بأني مقيَّد، أفرغتُ غضبي وعجزي في الشاب الذي قال عني متهور، جاءَ جمعٌ من الناس يبعدني عن الشاب، لحسن الحظ وقتها ابتعدت عنه، وإلا كان من الممكن أن أنهال عليه بالضرب المبرح، للتنفيس عن صدري نوبة الغضب، فقد دنا موعد انتهاء الحفل، سأخذل مسك للمرة الأولى، ركبتُ سيارتي وطرقت الباب بغضب شديد، أخذت أنفاسًا متسارعة، حدثتُ نفسي: أن تصل متأخرًا خيرٌ من ألا تصل.

قبل المسرح بعشرين مترًا.

كانت إشارة ضوئية حمراء، وقفتُ خلف أربع سيارات، أنظر إلى ساعتي تارة وإلى الإشارة تارةً أخرى، أدركتُ أن القدر يلعب ضدي، استسلمتُ، فبات الألم يتركز في معدتي، وتصعد حرارته إلى حلقي، تحولت الإشارة للون الأصفر ثم الأخضر، ولكن ما الفائدة الآن؟ لقد تحطم قلبي، أُصِبتُ أنا بخيبة قهر، فكيف شعور مسك عندما تعلم أني أخلفتُ الوعد الأول بيننا!.

لن تصدق حجم الضغط الواقع عليَّ، فهي يهمها الوعد فقط، تقدّس الوعود وتوقرها، وصلتُ إلى المسرح، أسير إلى الداخل بتثاقل، خلعتُ ربطة العنق، ووقفتُ أسند ظهري على باب المسرح، واحتضنت ساعدي، أناظرُ الفرقة التي ترقص على الخشبة، لا، هذه ليست رقصة، إنها نوع من أنواع الدبكة، مختلطة، يشترك فيها الرجال والنساء باللباس الفلسطيني، يرقصون الدبكة على أنغام أغنية شعبية فلسطينية..

ابتسمتُ بخفة، رأيتُ صغيرتي تدبك في الوسط، ترتدي سروالًا أسود وقميصًا أسود مطرَّزًا بالتطريز الفلسطيني الأحمر، تضع على سافلة خصرها كوفية بلونين الأبيض والأسود، وشالًا أسود شفافًا، وعلى جبهتها قطعة مطرزة كتطريز القميص، تأملت حركاتها الآسرة، أريد التحليق لأصل إليها أنصهر في عناقها، فالعناق بالحب واجبًا، ملهمي ونور طريقي، قفز قلبي مِن مسكنه عندما رأيتها أنهت دبكتها، تركع على قدميها وترفع يديها إلى أعلى، لمدة دقيقة، هذه الحركة تغنيني عن العالم بأسره، انتهى الحفل بكلمة شكر مِن مُدير فريق شموخ الرائع.

عـدتُ إلى البيت مكروبَ الوجه، مُنكسر النفس، كانت أمنيتي إني أفرّح مِسك بوجودي، لكن كان للقدر رأي آخر، غير توقعاتنا، وعكس آمالنا وأحلامنا، والمفروض أننا نتقبل القدر بخيره وشره.

رحت أبرد جسدي بحمام لدقائق وفيرة، لعلَّ برود الماء تشطف عن رأسي ثقل أفكاري، والتخفيفً مِن لوم نفسي.

تعذرتُ لزوجتي عن العشاء بعد أن أبدت إعجابها بمقابلتي التلفزيونية، ذهبتُ إلى مكتبي خفيةً، الساعة الآن العاشرة مساءً، مسكتُ هاتفي أتصفح الإنستغرام، نشرت مسك قبل سبعة عشر دقيقة على حالتها جملة عتاب: الوعود مجرد كلمات ليس لها معنى، كلمات تكتب وترسل، ويمكن في أي وقت مسحها ونسيانها.

فرددتُ: أشعر أنني المقصود، آسف جدًّا مقصدتش أخلف وعدي ليكي، لكن كان عندي تصوير.

ردت بسرعة: ولماذا لم تقل لي إنّ لديك تصويرًا؟ لماذا جعلتني أثق بك وبوعدك الزائف؟

فقمتُ بالاتصال بها فورًا، سأسمع صوتها للمرة الثانية.

قالت بلهجة حادة: ماذا تريد؟

قلت لها مداعبًا: أتسمحين لي بأن أعاكسك؟

أجابت بصوت حاد مرة أخرى: لا!.

_ ترفضين مغازلتي؟

_ نعم.

_ لكنّ حديثي معك سيحمل كثيرًا من الغزل، فهل تقبلين؟

_ لا، ماذا تريد؟

_ أريد أن أشرح لكِ.

_ لا أريد شرحًا، ما يهمني هو أنك أخلفت وعدك معي وكذبتَ ع..

قاطعتها: كنتي جميلة بلباسك وحركاتك.

قالت بدهشة: ما فهمت!.

_ أعترف أنني مخطئ وتأخرت، لكنني جئتُ في اللحظة الأخيرة، يعني لم أخلف وعدي لكِ، ولم أكن كاذبًا.

_ تعرف؟

_ ايه!.

ـ حضورك هذا بارد جدًا، قتلتُ حماستي ولهفتي بانتظارك، ليتني لم أنتظرك، وليتك لم تأتِ حتى.

فقلت لها وأنا لأول مرة أستخدم اسمها بعدما أسميتها مسك: نهاية!.

ما أجمل صوتكِ وأنتِ غاضبة مني، لم أقصد إحزانك، والله لو رأيتِ كيف جئت مسرعًا لأجلك لتسامحيني.

ظلّت صامتة، فقلتُ لها: ما رأيكِ يا صغيرتي بلقاء لنا أنا وأنتِ في أحد الأماكن نحتسي القهوة؟ واعتبريها..

ـ إرضاءً لخاطري؟ قالت تقاطعني.

ـ نعم، أنتِ شاطرة أهو، هاا ايه رأيك؟

ـ تمام موافقة، إمتى؟

ـ المسا الساعة التاسعة، ممكن؟

ـ ممكن.

ـ مسك، أنتِ مسمحاني؟

ـ أجل.

فقلتُ لها: بحبك..

وأغلقت الخط، لأنني على يقين أنها ستصدني عن كلام الحب، أريد لأشعرها بنشوة كلمة بحبك، وإذ بها ترسل لي بلهجة فلسطينية: أنتَ كيف بتحكي معي هيك؟ نحن أصدقاء فقط!.

فقلت: لم أختر حبك، حبك من اختارني.

قالت لي: تصبح على خير.

ـ وأنتِ من أهل قلبي، مستنيكِ بكرة بقلبٍ متأجج..

فأجابت محذِّرة: ماشي وهنتفاهم على الكلام اللي قلته.

***

بعد أسبوعين يوم الخميس ١٤/ ديسمبر

أتأمل شفق الغروب بفتور وغصة عبر نافذتي الزجاجية الضخمة، وكأنها سقطت على صدري صخرة ثقيلة تجعلني لا أقوى على التنفس، بات الألم في قلبي يصعب على جسدي تحمله، وآلام الشوق والحب داخلي تروي الأرض العطشى،وتساؤلتُ بتشك: أيحاسب .... الإنسان على مشاعره؟ أهذا ابتلاء من الله أم عقاب؟ كل ما أعلمه أنني وقعت في الحب، حب الحكايات والخيال، صدقت مسك عندما قالت "إن الشوق يشتعل بالبعد"، صدقت، تمنيت لكلينا حالًا أفضل ما نحن به الآن، ولكنها تبقى مجرد أمنية، وجدت نفسي هاويًا في قاع الجحيم، جحيم الندم، يتردد في عقلي جملتها "كنتُ أخطو إليك بكل ثقة، لكنني عدت وأنا محملة بالخيبات"، نعم، محقة، ومن حقها ألا تسامحني، خذلتها مجددًا، وأخلفتُ وعدي ثانيةً، أنا تمامًا منقسم، جزء مني يقاوم مشاعري، وجزء ينهار بفراقها عني، فشلتُ أن أبعدها من تفكيري وعقلي، لم أنجح في إخراجها من كوني، فهل يمكن للإنسان أن ينسى شخصًا أحبه يومًا؟ مستحيل، ربما في العالم الآخر "عالم الموت" فقط.

قال محمود درويش "عندما لا تستطيع أن تقترب ولا أن تبتعد ولا

تستطيع أن تنسى، ولا أن تتجاوز، فأهلا بك في المنتصف المميت الذي لا حول لك فيه ولا قوة".

تمامًا لقد وقعت في المنتصف المميت.

مهلًا يا ديسمبر، مهلًا يا شهر الحب والنهاية، أرجوك كُنْ شهرَ مسك الختام مثل حبيبتي، مُعضِلتي، وجعي، أتى ديسمبر البارد وأمطاره لم تستطع أن تطفئ جمرات الشوق المُشتَعِلة، في ديسمبر عند بداية الشهر يأتي ليقول لنا إنه حان الوقت لنهاية الطريق، فمهلًا، أرغب في اقتطاف الزهور، الحنين يملأ صدري، لا أعلم كيف الثلج لا يطفئ نار الحنين التي بداخلي، كيف أمكنني تحمل برودة الجو وحرقة صدري ممتلئة بالعشق والشوق، أيامي ظلام بدونها، وحيد أنا بدون فتاتي في ديسمبر الحب.

***

اليوم التالي الساعة الثامنة صباحًا

السماء تُمطِر والرياح تعصف وقلبي يعتصر ألمًا، أحتسي قهوتي صباحًا وأرى بخار القهوة يعزف لحنًا حزينًا، هذه الأجواء تحتاج لحب وكتاب وفنجانين من القهوة، كنت أريد القول ومدفأة حطب، لكنني تراجعت، لأن ما نفع المدفأة بوجود مسك!.

فالعناق يكتفي للدفء، وإن لم يكتفِ، فأشعل النيران بحروفي وكلماتي وليحترق عالم رواياتي لأجلها، لكنه الآن يبقى حلم، لا يمكن أن تنتهي علاقتنا هكذا وبهذه السرعة، سأعيش أجوائي معها على أنغام دندنة إيقاعات الحب والرومنسية، سأذهب إلى المطار، وأحجز تذكرة سفر إلى

باريس، مهلًا، وزوجتي، مممم بسيطة، سأدَّعي لزوجتي أن لديّ أعمالًا تجعلني أتغيّب عن المنزل لمدة يومين، يومين فقط، لعلَّ مسك تسامحني بعد الخذلان الثاني لها.

جهزت شنطة السفر وحجزت تذكرة مستعجلة، دفعت ضعف المبلغ المطلوب، تدبرت أمر زوجتي، وأكملت خطتي وذهبت، فالحب يتركك بلا وقت ثم يحوِّلك إلى مغامر محترف، هذه الرحلة الأولى في تاريخي التي أذهبها بدون تخطيط، أسير بلا نظام، أحببت الاختلاف الجديد هذا، أشعر بالمتعة والحماسة لرحلتي الأولى مجهولة الوجهة، كل ما أعرفه أن وجهتي هي مسك، لكن أين؟ سوف أدع قلبي يبحث عنها..

لم يقلقني كيف سأجد مسك من بَين ستة وستين مليون نسمة وفي مساحة ستمائة وأربعة وسبعين ألفًا وثمانمائة وثلاثة وأربعين كيلو مترًا مربعًا.

في أثناء الطيران الجوي، شربت عصيرًا طبيعيًّا وتناولت وجبة خفيفة، حاولت النوم لكن فشلت، لم تدخل مسك أحلامي يومًا في نومي، بل كانت حلمًا لا يجعلني أنام، لا يخرج من عقلي التفكير بحبيبتي، كان حدسي يخبرني أنها سوف تسامحني، فقلبها رقيق ثلجي، أثق بطيبة قلبها وعفوها عني، وخصوصًا عندما تعلم برحلتي لأجلها، كان مقعدي بجانب النافذة رحت أنظر إلى الأضواء البعيدة الخافتة وأسطح ناطحات السحاب البارزة، كانت لحظة جميلة ورائعة، استنشقت الهواء باسترخاء، لدي إحساس بالارتياح.

وصلت الحمد لله بالسلامة بعد أربع ساعات وخمسين دقيقة، إلى باريس، بلد الدفء، هذه ليست المرة الأولى أكون فيها في باريس، ولدي امتيازات حصلت عليها مسبقًا، لا أحد يحصل عليها بسهولة، وبلاد أجنبية أخرى غيرها، وأجيد اللغة الفرنسية بطلاقة فكانت دراستي سهلة في هذا البلد فأكملت دراستي في باريس التصوير السينمائي والإخراج، وأعمل في هذا المجال كثيرًا.

استنشقت هواءها المختلط بأنفاس مِسك، جررت حقيبتي وصوت عجلاتها لم يوترني أو يخفف من حماستي، فلا شيء يعكر صفو مزاجي الآن، استقللت تاكسي أوصلني إلى الفندق، أعطيته ضعف أجره، ابتهج كثيرًا ومنحني ابتهاجه سعادة مضاعفة، أعطاني بطاقة فيها رقمه وطلب مني أن أهاتفه عندما يحتاج المساعدة، فمدَدْت إليه رقمي الخاص من فرط سعادتي، مع أنه لا أشارك هذا الرقم إلا لعائلتي، إنها إحدى نشوات السعادة، أن تتصرف وَفْق ما يقوله قلبك لا عقلك، صعدت وأنا أُدندن إلى غرفتي، رتَّبت مَلابسي في الدُّولاب، وغطست نصف ساعة بمياه دافئة جدًّا في حوض الاستحمام، استحمَمْت وارتَدَيت بيجامتي وصليت المغرب، وغرقت في نوم عميق.

استيقظت بعدَ ثلاث ساعات، توضَّئت مِن جَديد وصليَّت العشاء، بدَّلت ملابسي، والتحفتُ سترة جلدية بلون الفحم، ذهبت أتناول عشائي مِن طعام الشارع، فهو الآن بأفضل حالاته وأشهاها، رغيف مُقرمش باريسي لذيذ وستيك بقري وجبنة مطاطية مع الزبدة بالطبع، وماء غازيٌّ، أنهيت طعامي، والآن، سأجد مسك، عندي أصدقاء كُثر يستقرون في

باريس، هاتفتُ الأول، السيد حسين علي مصري ولديه منزل يأتي إليه بكثرة، يبقى هنا أكثر مما يقطن في مصر، كاتب روايات رائع، سألته عَن فِرقة شموخ، قال: لم أسمع بهذا الشيء، فهاتفتُ صديقي الثاني، السيد سميح الغازي، ليبي لاجئ في باريس كاتبُ كتب تطوير للذات، سألته أيضًا عن الفرقة، قال لي: لم أسمع بهذا الاسم.

ثم هاتفتُ صديقي الثالث والرابع والخامس ووووو، ولا أحد يعلم بهذا الاسم، لم أيأس، ولن أستسلم كفرقة مسك التي شقَّت طريق اللا استسلام، وأنا أيضًا سأشق طريق اللا استسلام، ليس بيدي طريقة إلا أن أهاتف مسك وأسألها عن موقعها، جلست أتمتم: لن تقولي لي، لن توافق، لا، لا، جلستُ على حافة الطريق أسفل سقف حديدي أحتمي به مِن المَطر الغزير بشرود، صرختُ: هاااا لقيتها، بما أنه مسرح عالمي فأكيد ألاقي حاجة في وسائل التواصل الاجتماعي.

فتحتُ هاتفي على جوجل، وجدت الكثير من العناوين التي تخُص فرقة شموخ، كلها تخص الاحتفال الذي أُقيم في مصر، دخلتُ جميعها، وقرأتها مثل طالبٍ متطلع للعلم، لم يفِدني شيء إلا أنها فرقة قادمة من العاصمة باريس، وهذا أحلى خبر رصدته، الحمد لله ولا البلاش قلت بسري، المهم الآن أنني أعلم أنها هنا بالعاصمة ولست مضطرًا أن أبحث في ٩١٥ مدينة، قفزتُ على قدميَّ، نهضتُ أسأل بلغة فرنسية الذي أكلت عنده عشائي، قال لي: لا أعلم، ذهبتُ إلى سوبر ماركت ضخم على مقربة مني، سألتُ الكاشير وأيضًا قال لي لا أعلم شيئًا عن هذا الاسم، دخلت مثل المجنون على الناس في داخل السوبر ماركت وأسألهم واحدًا تلو

الآخر، أنظر في أعينهم لأتلقَّى الأمل، لكن دون جدوى، عدتُ تائهًا من جديد، ماذا أفعل، حدّثت نفسي: بما أنه لا أحد يعلم بهم هنا، إذن ليسوا في هذه الجهة من العاصمة، الساعة الآن الحادية عشر ونصف، ما زال معي الوقت للبحث عنهم، فسكَّان مدينة باريس لا ينامون بوقت مُحدد، يحبون السهر وخصوصًا في هذه الأجواء الرومنسية، أخذتُ تاكسي وبدأت البحث على لافتات الشارع عن أي طرف خيط يؤدي للمسرح أو الفرقة، اتفقت مع السائق أنني سأعطيه أجرة مضاعفة إن سمح لي بالنزول والاستفسار مِن الناس، رفض في البداية ثم طلب مني مبلغًا هائلًا، كان استغلاليًّا حقيرًا، لكن ليس باليد حيلة، وافقتُ دون تردد، فمن الممكن أن أجد ضالَّتي، بقيتُ طوال الليلة أبحث عن إجابة في وجوه الناس، كانت إجاباتهم نفسها، لم تختلف ولا مرة واحدة، عدتُ إلى غرفتي خائبًا، ماذا؟ هل يئست؟ لسا بدري يا محمد، هذه ضريبة الحب، ضريبة أن تكون خاذلًا لمسك، أحدثُ نفسي كالأخرق، جلستُ على الأريكة وجسمي مثقل بالتعب ومشاعر الحزن.

انتهى يومي الأول بدون مسك، الحمد لله أن طيارتي غدًا متأخرة، أتمسك بأمل صغير، والآن، سأرتاح، أستجمع نفسي للغد، لعلني أجد حبيبتي، أخذتُ حمامًا ساخنًا، صليتُ لله ركعتين رجوتُ بسجودي أن أجد مسك، فأنا أيقنت بأني أحببتها حقًا، وسأقنعها بأن تتحجَّب وتلبس اللباس الشرعي وأتزوجها، فلن أتسلى معها، أنا لست من هذا النوع، دعوت الله بثقة أن أجدها، قلت: يا رب، أنت تعلم السر وما أخفى، قلبي بين يديك وأنت تعلم ما في قلبي، لم أختَر أن أحبها، فقلبي تعلَّق بها دون

إرادتي، ولا أستطيع أن أشغل قلبي عنها، وأنت تعلم أنه ليس بمقدرتي، يا رب أنا تائه يا رب، اجمع شتات أمري واجمعني بضالتي مسك، خذلتها وكسرت قلبها سأطلب منها أن تسامحني، أرجوك يا رب متحرمنيش من اللي حبها قلبي، أرجوك.

تسطحتُ على السرير قبل أن أغرق في النوم، أستغرقُ وقتًا بالتفكير، وقعت على بالي فكرة، عدَّلتُ جلستي، مسكتُ هاتفي، طلبتُ رقمًا في القاهرة أحد زملائي في التصوير لأسأله عن تلك الفرقة التي حضرت من باريس وأقامت حفلًا في القاهرة، لكنه لم يُجِب، أوه، يا لغبائي، الوقت الآن بعد الثانية مُنتصف الليل، قهقهتُ.

أحدث نفسي: لم أعلم أن الحب يجعل الإنسان غبيًّا.

رجعت إلى هيئتي، أقلب في هاتفي حساب مسك على الإنستغرام، أنظرُ إلى وجهها البريء، اشتقت إلى الحديث معها، فرحتُ، أقلِّبُ محادثاتنا ورسائلنا، ليت باستطاعتي أن أكتب لها، لكنها قالت لي مؤخرًا: إن أرسلت لي شيئًا فسأقوم بحظرك، لا، لن أكتب سأحتفظ بوعدي هذا، ولن أخلفه أيضًا معها، هذه كارثة كبرى إن فعلتها.

كررتُ التقليب في حسابها، إلى أن وصلتُ إلى أول يوم لها في الإنستغرام، كانت صورة لها ولوالديها، تجلسُ مسك في المنتصف ويقومان بتقبيلها كل منهما قبلة على الخد وهي في سعادة عارمة، كانت صغيرة تقريبًا بعمر الخامسة عشرة، كتبت أسفلها: أسماني والداي "نهاية" لأكون نهاية الولادة، ما رأيكم يا أصدقاء؟ ، وأضافت: اللهم احفظ لي أمي وأبي،

ورسمت القلب الأبيض خاصتها.

أشكر والديها لعدم الإنجاب مِن بعدها، فقد كان آخر عنقودهم مسكًا فعلًا.

رأيتُ في منشور آخر صورة طفلٍ صغير يَكاد يخطو على قدَمَيْه، أشقر الشعر مُجعد، أبيض البشرة، عليه حبَّات مِن الرمال اندثرت على وجنتيه شكَّلا نمشًا رائعًا، يبدو حزينًا بالصورة، مكتوب أسفلها: الله يرحمك يا أخي يا حبيبي، وقلب أحمر مُنكسر وآخر أبيض فهمتُ مِن التعليقات أنه توفيَ بلدغة عقربة شقراء سامّة، كَانت تبدو حزينة على أخيها.

تأثرتُ وضاق صدري، أحسستُ بوجعها، فأنا أيضًا فقدتُ أخي، كان شابًا لطيفًا، صحيح أنه مُتهوِّر في بعض الأمور، لكنني لا ألوم تهوره، فقد كان في مرحلة العصيان والتمرُّد، مرحلة الطيش والمراهقة، قبل موته بأسبوعٍ، طلب مني أن نخرج معًا للترفيه عن أنفسنا، رفضت، فقد كنتُ مشغولًا بشدة لروايتي الثانية، وكرر طلبه بعد يومين، أيضًا رفضت لقلة وقتي، وقبل موته بدقائق جاء إلى مكتبي، صرخ في وجهي واتهمني بالتكبُّر عليه منذ نجاح روايتي ولمع اسمي بالتلفاز ومواقع التواصل الاجتماعي، حاولت أن أفهِمَه بأنني مشغول حقًا، لم يكترث لوقتي ومسؤولياتي الجديدة، فخرج مسرعًا غاضبًا يكاد يندثر الدم من رأسه، اقتاد دراجته بجنون الغضب إلى أن ارتطم بجدار تسبب في موته الله يرحمه ويغفر له، قَصَمَ ظهري وكسر قلبي برحيله المفاجئ، لن أنسى أبدًا المشهد وأنا أخطو نحوه بخطوات ثقيلة لأودعه الوداع الأخير، وأقبِّل جبينه الثلجي، كنت أمشي وأهمس في سري يا الله اجعل هذا حلمًا!.

يا رب إن فراقه صعب هدم حيلتي، وكلمات الوداع كانت كفيلة أن أقضي حياتي وأنا ألوم نفسي وأجلد ذاتي على رفضي لقضاء وقت معه، ألا ليت يعود الزمن، ألا ليت يعود الزمن.

فشلت في النوم فقررت أن أجلب دفترًا وقلمًا وأكتب أي شيء في خاطري، هكذا تعوَّدت أن أكتب وأنا مشتت الذهن، جلست على الأريكة.

وكتبت: عندما تجتاحك الذكريات والحنين مثل غَيم ماطر ثقيل، فتشعر بقلبك وقد تحول لورقة يابسة تسقط مع أول هبَّة ريح خريفية خفيفة فاعلم أنك عشقت، عندما تفقد السيطرة على مشاعرك وتتقرب من أحدهم وتهتم بإظهار أفضل ما لديك وتسعى بجميع الوسائل المُمْكِنة لجذب انتباهه وتبدأ رفع الحواجز فاعلم أنك عشقت، عندما تثرثر بكلام غير منطقي لم تجرؤ على قوله من قبل، يحرك لك أعضاءك والذي داخل شريانك، وتتوتر وتخجل، فاعلم أنك عشقت.

عندما تتلهف للقاء من تحب ورؤيته، وتحلق بجناحيك عاليًا نحو السماء، وتُصَاب بالجنون في عقلك، فاعلم أنك عشقت.

عندما تتراقص دقات قلبك على أنغام عزفت بريشة على أوتار آلة كمَّثريَّة عاشق ليطربك نشوًا، فاعلم أنك عشقت.

***

اليوم الأخير في باريس:

صباحًا وبعد الفطور رنَّ هاتفي كانَ اتصالًا مِن القاهرة، صديقي

الذي هاتفته في الليل، كان قلقًا أن حدث لي مكروه لأنه وجد مني مكالمة فائتة بوقتٍ مُتأخِّر بعد منتصف الليل.

فقلت له: لا لا يا عم مفيش حاجة، كنت عايز أسألك بس عن الفرقة بتاعت المسرح اللي جت من باريس.

فقال لي متعجّبًا: بخصوص ايه؟

_ أنا عايز أعرف موقعهم في باريس بس.

_ حاضر، بس ادِّيني شوية وقت، علشان بشوف الملف بتاعهم الأول وبرجعلك بمكالمة.

_ أنا محتاج العنوان اليوم أرجوك لا تتأخر.

_ حاضر يا رندلّي اليوم.

استغربت من اسمي الذي مسحته ذاكرة الحب، كأن شيئًا صفعني لأستعيد وعيي من الهذيان الواقع على شخصيتي، سمعت صوتًا داخلي يحدثني:

ما الذي أفعله هنا؟ ولأجل من؟

أنا محمد الرندلّي ينتهي بي المطاف كالمجنون!.

لأجل فتاة حسناء!.

لا أعلم ما الذي حصل لي عندما سمعتُ اسمي، كأنني كنت فاقدًا للذاكرة وعادت لي من جديد، اضطربت أفكاري وأحاسيسي، احترق رأسي برماد الندم، ربما ندمتُ لخيانتي زوجتي وعائلتي والكذب عليهما،

وربما ندمتُ على إدخال مسك حياتي التي جعلتني أفتل الشوارع لأجلها، أو خذلاني لها هو من أوصلني إلى هنا، ربما وألف ربما دخلت في رأسي، جلستُ منهارًا لا أريد التفكير، اتصلتُ بزوجتي

سَكَنَ تخبطي قليلًا بسماع صوتها الحمد لله، ثم أخبرتني أن ابني الصغير ذا السنتين من العمر مُصاب بحرارة عالية، نهضتُ من جلستي الثقيلة كالبرق، وأخبرتها أني سأحجز طيارة طارئة سأتجهز وأخرج الآن، لم أتردد، لا، أحسستُ أنني مخطئ في الوقوع بالحب، لديَّ زوجة تحبني وعائلة تحتوينا تحت سقف واحد، لم أشأ أن أهدم كيان أسرتنا، استيقظتُ من خُمرة الحب أخذتُ حمامًا ساخنًا، وهرعتُ إلى المطار، امتيازاتي التي تعبتُ لأجل أن أمتلكها من دولة باريس منحتني طيرانًا طارئًا، مع أن رحلتي كانت الساعة التاسعة مساءً، الحمد لله شكرتُ الله على كل شيء، أخذتُ التوقيع والطابع الذي يمكنني من السفر في الحال، أنتظر مع الناس بين الصفوف في طابور طويل لفتح بوابة الدخول، بعد إخلاء طائرة قادمة أخرى في أثناء الانتظار، وخلال صحوة عقلي من تأثير تخدير الحب العليل، نزلت من الطائرة القادمة عُصبة فتيات وشبَّان يرتدون اللباس الفلّاحي الفلسطيني والكوفية على رءوسهم، تبدو عليهم ملامح السعادة العارمة، من بينهم فتاة فاتنة مغرية لمشاعري، رأيتها بالتخيل البطيء تبتسم بشدّة وهي تتكلم وتستخدم يديها للشرح وتلوح بهما كثيرًا وببطءٍ ساحر، عكست لي ثقتها العالية بنفسها، تلك المرأة الخارقة، عادت لي لفت النظر، بل إطالة النظر لها، ما هذا الجمال يا الله!.

والكوفية التي على رأسها وامتدت على الجانب اليمين كبَّلت عاطفتي

من جديد، كأن ظهورها جاء ليزعزع كياني مجددًا، تلاشت ابتسامتها شيئًا فشيئًا عندما وقعت عينها في عيني، رأتني فذهبت سعادتها رأيتُ في وجهها الكثير من علامات الاستفهام، تمنيتُ لو أصبح مثل الممثل محمد السقّا أقفز عبر السياج ومن فوق رءوس الناس وأصل إليها، وأحتضنها بشدة وأعتذر لها عن عدم حضوري إلى ذلك الموعد الذي خططته أنا إرضاءً لها، لم أكن أعلم أنه سيكون خذلانًا جديدًا، لكن لم أفعل شيئًا ووقفتُ ساكنًا أتأمل عتاب عيونها المختبئة خلف ستار الأسئلة، رحلت مسك ورحل قلبي معها.

سمعت همسًا من جديد داخل رأسي يقول: ايه اللي جرالك يا محمد يا رندلِّي؟

ما أنت قلت لنفسك إن عندك عائلة تحبك وإنك زليت في الحب؟ حصل ايه دلوقتي؟

صعدتُ إلى مقعدي بتداخل الحسرة والأسف، أحكمتُ إغلاق يدي بشدة وضربتُ المقعد الذي الأمامي، لحسن حظي لم يجلس فيه صاحبه بعد، وإلا كان نشب خلاف ليس له لزوم، فأنا لا أرى شيئًا عند غصبي، وبختُ نفسي، لماذا لم أعُد إلى مسك وأتكلم معها، وأسافر بموعدي الأول في المساء، لماذا وقفت كالأبله في الوقت الذي كان من المفترض أن أتحرك فيه!.

ربما هي الآن بغضتني أكثر، فما حاولت لأجل استرضائها، لكن، طفلي مريض، حبي لطفلي أولى من حبي لها، لذلك، سأعود لها، فأنا متيقن الآن ليس باستطاعتي العيش بدون مسك.

وصلتُ إلى القاهرة، وجدت ابني الصغير اسمه حمزة فاقدًا للوعي ينتفض كأنما يتعرض لصدمات كهربائية مِن شدة ارتفاع الحرارة، خشيتُ أن يصيبه السحايا، اتصلت بأصدقاء لي من المستشفى عين الشمس العام، فهو من أفضل المستشفيات بالقاهرة، وفيه أطباء أصدقائي مِن أيام الجامعة فيساعدوني بالوقت، حدَّثت الطبيب بحال حمزة ليتجهزوا ريثما أصل المستشفى حَمَلته بين ذراعي إلى مركز الطوارئ في منظر مريع، نقلوه فورًا إلى غرفة الإنعاش هرعتُ إلى صديقي وأخبرته أن ينقل لي حقيقة حالة طفلي، قال لي بابتئاس: يحتاج دعواتكم.

تظاهرتُ بالصلابة، لكنني كنتُ عاجزًا تمامًا كطفلي الآن.

انهارت زوجتي وأُصيبت بدوار جعلها تفقد توازنها، أسعفها الممرض وأدخلها ترتاح في غرفة وعلَّق لها محلولًا بالوريد، أعطاها جرعة من المهدئ لتنام وتهدأ، فخرجتُ أسير بشرود، وقفتُ في منتصف ساحة المستشفى بوهن، أضع راحتي في جيب بنطالي، أتأمل السماء الدامسة، يتخفَّى القمر خلف سحب الليل اللانقْبية، وصوت أذان المغرب متكسر في ريح ديسمبر، دعوت الله والله يجيب دعوة المضطر، تذكرت دعوة النبي يونس وهو في بطن الحوت، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، ألهمني الله ترديدها مرارًا.

يكشط سكينتي رنة الهاتف المحمول في عمق هذه اللحظة الحزينة، يقول لي إنه عثر على عنوان فرقة شموخ، فقلت له مقاطعًا: انسَ الموضوع.

دخلتُ إلى الطبيب أسأله عن وضع حمزة.

فقال لي: كنت أبحث عنك.

قلتُ بدهشة: هل حدث شيء سيئ؟

_ لا لا، ابحث عنك لأطمئنك، الحمد لله ولدك بخير الآن، استطعنا أن نعيد له وعيه وسنخرجه في الحال من غرفة الإنعاش.

قلت بامتنان: الحمد لله يا رب، الحمد لله.

_ لكن سنضعه هذه الليلة تحت المُرَاقبة، ويحتاج إلى بعض الأدوية في الوريد لنتأكد مِن تمام صحته ونخرجه غدًا إن شاء الله.

ثم سألته: هو ليه حصل معاه كده؟

_ لا تقلق، أحيانًا تحدث تشنجات حرارية للأطفال الذين ترتفع حرارتهم فوق الثمانية والثلاثين، وممكن أن تكون نوبات تتكرر عند كل ارتفاع حرارة، فعليكم الحذر المرة القادمة من صعود الحرارة.

فقلت له: طب ممكن أشوفه؟ _ طبعًا ممكن.

أيقظتُ زوجتي أطمئنها وأنا ألاطف شعرها، رأينا حمزة وتأكدنا من سلامته، حمدنا الله على كل شيء.

***

١/ ١/ ٢٠٢٣ في باريس الساعة الآن الثامنة مساءً

يا أغرب عام مرَّ عليَّ، الذي تغيرت فيه من شخصيتي العامة إلى محمد فقط، فلن أجعلَها مجرد نهاية سنة تمر هكذا، قررتُ إغلاق أبواب الآلام والأشواق كما تقوم الأعوام بإغلاق صفحاتها، لذلك أنا في باريس، في

غرفتي، لكن ليس لديَّ عنوان مسك ولا أستطيع مهاتفة صديقي في القاهرة، كي لا يشك في تحوُّل شخصيتي المتناقضة المستحدثة، لكن.

هذه المرة الحظ حليفي، وجدتُ بطاقة رقم لصاحب التاكسي الذي أوصلني من المطار إلى الفندق في المرة السابقة واحتمال كبير أن سائقي التكاسي يعلمون

الكثير عن الأماكن في باريس، كلّمته بلغة فرنسية عن إرادتي بالبحث عن عنوان فرقة شموخ.

فقال لي إنه يعلم جيدًا بالمسرح وخاصة فرقة شموخ، وأنّ موقعهم في مدينة فرساي تبعد حوالي ٤٥ دقيقة عن الفندق.

بادرتُ بتبديل ملابسي، وتصفيف شعري، ونثرتُ أغلى ما أملك مِن الرائحة وهو عطر "شموخ" لا أعتقد أن هذا صدفة، أقصد اسم عطري واسم فرقة حبيبتي، فدلالة الأشياء تأتي من أسمائها، فاسم شموخ بالعطر يدل على الرفعة والثقة والمكانة العالية، وشموخ في اسم فرقة مسك يدل على الإبداع وتحقيق الطموح وعدم اليأس والاستسلام، أي إن كلينا نحمل هذه الصفات وبيننا أسماء مشتركة.

جاء السائق ورحل بي إلى فرساي كنتُ شارد الذهن، عاد شيء بداخلي، صراع الحب والخيانة، تحوّل شرودي إلى سكون، فلم أحرك بصري لأنظر إلى معالم باريس وبناياتها الشاهقة، كنت جالسًا مثل الطفل المعاقب، وكما قال لي السائق إنه تحدث معي ولم أسمعه، فعندما كرر يناديني بصوت عالٍ سمعت وتعمدت ألا أعيره انتباهًا، كيلا أخوض معه أحاديث فارغة،

الأمر الذي دفع السائق ليتمتم متعجبًا وهو ينظر لي من انعكاس المرآة: ما به هذا المعتوه؟ معلوماتي عنه أنه لم يكن أطرش من قبل.

ذهلتُ عند سماعه يتكلم باللغة العربية!.

عربي!.

أأتكلم اللغة العربية؟!.

قلت مسرعًا.

فقال بصدمة: أأنت عربي؟!.

_ أيوة أنا عربي، وأنت؟

قال متلعثمًا ويبدو عليه الخجل: أنا آسف، متأسف جدًّا، افتكرتك أجنبيًّا، لم أقصد ما قلته، لكن سألتك كثيرًا وأنت لم تجب، أنا محرج منك، اعذرني.

_ لا عليك، كنت أفكر في عدة أمور، وأضفت: أنت كيف تكلمت عربي!.

فقال: أنا من أصول عربية أيضًا، واستقريتُ في فرنسا، ومثل ما ترى أعمل في مكتب تكسي كسائق.

_ من أي بلد عربي؟

_ مِن سوريا.

_ أهلًا وسهلًا تشرفت.

_ شكرًا.

_ العفو.

_ وأنت؟ أقصد من أي بلد أنت؟

_ من مصر.

_ أهلًا وسهلًا بأم الدنيا، والأهرامات وأبو الهول والكشري، نورت باريس يا عم.

_ شكرًا.

_ أنا مبسوط إني بلاقي عرب هنا قليل جدًا من أقابله يتكلم العربية.

_ وأنت كمان فرحتني إنك عربي.

وأضفتْ: أنت ازاي بتعرف فرقة شموخ؟ قال لي بلغته السورية: قصة طويلة يا حبيب، ما بدي أوجع لك راسك.

_ أحب أسمعها جدًّا.

_ أنت بتعرف أفراد شموخ، عشان رايح عندهم؟ _ لاء، يعني، أعرف حد بس..

_ ما تفهمني غلط يا حبيب، أنتا رايح لمين فيهم؟

_ هو الصراحة عايز أعتذر عن عدم حضوري للمسرح اللي أقاموه بالقاهرة.

_ تعتذر؟ وقهقه عاليًا:، احمد الله إنك ما رحت.

_ ليه؟

_ قلت لك قصة طويلة، بلاها يا أخي.

_ عايز أعرفها!.

فقال وهو يتصنع ابتسامة تخفي غضبًا وحقدًا: يا أخي الله يخليك، قلت لك سيرة طويلة، وما حابب أحكي فيها..

فأثار استغرابي وتشابكت أفكاري بجحود كلماته المقطعة، هناك سر لا يريد الإفصاح عنه، صعب المنال، قاطع تشتتي بسؤال: _ يا أخي، بلا صغرة (كلمة سورية تقال للشخص لإظهار الاحترام) أنت مين؟

كنت جالس على المقعد الخلفي، بهيئة رجل على رجل وأكرر ترجرج راحة يدي على سطح اليد أخرى فقلت وأنا ما زلت مواظبًا على هيئتي: أنا إعلامي وكاتب روايات.

_ تشرفنا يا أخي، ممكن أحكي لك شي؟!.

_ نعم، تفضل!.

فعندما قال: أنتَ متوتر وقلق، أصغيتُ جيدًا، وأضاف: عميق، وفي داخلك معركة كبيرة، محتار في موضوع، لكنك واثق من نفسك، وتشعر بالسيطرة.

فابتسمت وقلت: أنت ازاي عرفت كل ده؟

فقال وهو يشعر بنشوة ثقة: أنا بقرأ الأشخاص من شكلهم وبعرف سر غموض كل شخص، يعني أنت مثلًا: واقع في الحب، وأنت مستغرب من نفسك!.

بدك تعيش الحب وبنفس الوقت ما بدك حب، لكن ليش؟ ما عرفت السبب، أنت أدرى فيه أخي.

فابتسمت مجددًا بابتسامة تنم عن بغض وكره فضح حقيقتي، وقلت: يا راجل فكك من هذا الكلام، أردفتُ بحكمة سريعة: الملامح لا تتكلم بالشخصية ودواخلها، ولا تعكس انطباعات عن أي كفاح في حياتنا، لا يمكن حصر سمات الشخص مِن نظرة أولى فقط، بل المفروض من المعاشرة أولًا، ثم إنَّ التحليل يا صديقي يكمن من الحديث والتصيُّد لأفكار وكلمات الشخص المقابل، وبعدها تأتي مرحلة سرد صفاته، فقال بعدم الرضا: أنتَ حر.

والتزم كلانا الصمت إلى حين وصولنا.

نزلتُ من التاكسي ومقابلي لافتة عريضة باللون الأسود، بكلمات باللون الأبيض "Shomoukh Theater" وعلى طرفها مطبوع رمز الكوفية الفلسطينية، صححتُ سحنتي، دفعت الباب الزجاجي ودخلت، موظفة الاستقبال بالفرنسية: تفضل، كيف أساعدك؟

أجبت بالفرنسية أيضًا: أريد مسك.

ورفعت سماعة الهاتف وقالت لي: ما اسمك؟ فطلبتُ منها أن تخبرها أني شخص مجهول، رفضت وأغلقت السماعة مباشرة، وقالت: هذا تصرف غير مسموح به لدينا، لا يمكنني أن أصل بك إلى أحد أعضاء المسرح بهذه الطريقة، فذهبتُ إلى الداخل دون أن أكترث لكلامها، فقامت تصيح تنادي الأمن، وأنا لا يهمني لا أمن ولا غيره، كنت كلما

أقترب أسمع أصوات ضحكات وحديثًا لا متناهيًا من عدة أشخاص في آنٍ واحد، سكتَ الشباب وكلهم ينظرون ناحيتي على صوت حذائي تاك تاكٍ تاك، التفتت مسك وشعرها ذائع في الريح، وخيوط من أشعة الشمس تسلَّلت عبر نافذة المسرح وصولًا إلى دائرة وجهها، خطت سهمًا أسودَ فوق جذور رموشها اخترق منتصف قلبي أضاء فتيلهُ عتمة وجداني، أفسَد هذياني رجلًا أمن انقضَّا عليّ كالمفترسين، صاحوا بها شباب المسرح بأني رجل مُهِم ومعروف لديهم، قدَّموا لي حصافة الاحترام والتقدير، فرحوا بوجودي بينهم كأنني شخص منهم، كأنهم أصدقائي ويعرفونني جيدًا، قدَّموا لي القهوة والتمر، وتبادلنا العديد من الأحاديث، إلا مسك، اكتفت بالصمت والعبوس، أربكها وجودي، وأخجلتها نظراتي الكثيرة، سرت لحظة صمت وأنا أركز بصري على مسك، أثارت شكوك الأصدقاء بمجيئي، رأيتهم لاحظوا أن سرًا تكاد عيني تفضحانه، فينظروا إلى عيوني ويروا انعكاس مسك في حدقتيَّ اللامعة، فتغامزوا جميعهم للذهاب إلى الخارج وإبقائنا أنا ومسك، إلَّا شخص وقفَ معترضًا بضغينة واشمئزاز بملامح باردة عيون ناعسة، أخرجه شاب بتعسّف، شدّه مِن كوع يده إلى الخارج، والآن، لا أحد في المسرح، إلا أنا ومسك.

اقتربتُ من مسك، زحفتُ بالكرسي وجلستُ مقابلها، أمسكتُ أرنبة أنفها بلطافة وقلت:

شَيءٌ إليك يجذبني، لا أدري ما هو!.

عندما أنظر لعيونك يحتويني السكون، تأسرني ابتسامتك، حاولت أن أبتعد عنك وأسلك طريقًا مختلفًا عن طيفك فأجدني أمامك، فاستسلمت،

وها أنا أمامك.

خجلها جعلها لا تركز النظر في عيوني لترى صدق كلماتي فقالت وهي منشغلة الذهن: يبدو أن طريق خيانة الوعود لديك لم ينتهِ بعد.

فقلت لها بدلال: نهاية، يا أميرتي، تعالي فكي قيدي، افتحي لي ذراعيكِ احتويني، لا ترفضيني، تعالي إلى قلبي وانظري مكانتك فيه.

فقالت لي بحدَّة سالبة عقلي: محمد!.

ربما لم يكن الموقف الذي وضعتني فيه يهمك لكنه كان انكسار روحي وتحطُّم قلبي!.

وخذلان جديد منك، فإذا سامحتك هذه المرة أيضًا فستحطم قلبي مرة أخرى، ولا يمكنني أن أتحمل، لم يعد بوسعي أن أتحمل،

_ نهاية، والله حدث هذا إجبارًا، لم أتخلف عن موعدنا، لكن..

_ لكن ماذا؟ فلامستُ كفتيَّ يداها الباهرة وقلت: سأكون صريح معك، لم أكن أعلم أنه في هذا اليوم ذكرى زواجي من زوجتي، فأرغمتني على سهرة خططت لها لتفاجئني فيها، حاولت كثيرًا أن أتهرب وأخترع أعمالًا، لكنها كانت مُصمِّمة على وجودي، وأخذت هاتفي المحمول وقامت بإغلاقه، لم أستطيع التملص منها، فاستجبت رغمًا عني لتفادي مشكلة كبيرة، فهمتِ يا مسك.

فقالت بسخرية: ولماذا رجل مثلك في حين أنه ليس لديك الوقت للحب أراك تركض ورائي؟!.

فقلت: الإنسان يسعى دائمًا للبحث عن النور الذي يضيء له طريقه، وأنا وجدتُ النور فيك، بل أنت النور بذاته.

فقالت: لا، كذب، فلديك زوجة تضيء لك طريقك.

_ لكن الإنسان لن تضيء طريقه إلا مع شخصه المناسب.

_ لكنني لا أستطيع أن أحبك، لا أريد أن أشعر بشيء تجاهك.

قالت بغلاظة: لا تتحدث بالتفاهات، وأرجوك اخرج من هنا وهي تشير بسبابتها نحو الباب.

وأمام كرامتي وعزة نفسي، صرفت وجهي باتجاه الباب بصمت وخطوتُ بانكسار إلى الخارج، وقبل ذهابي التفتُّ نحو مسك وقلت لها: جئتُ مِن أجلك إلى باريس، ليس لديَّ أعمال، وجودي هنا خالص لأجل مسك، والمرة الأولى التي التقينا فيها بالمطار كنت قبلها أبحث عنك في شوارع باريس كالصَّريع، فرصة سعيدة يا مسك، كدتُ أخرج من الباب.

فقالت لي: اسمي نهاية مش مسك.

فابتسمت ببرود وقلت: أنتِ كده، مسك الختام ونهاية مسك.

***

في اليوم التالي في مطعم ومقهى سيلينتو الساعة التاسعة مساءً، بحزن قالت لي: في قلبي فيضان لا يهدأ، ولا يرى بالعين البشرية المجردة، ولو رأته المخلوقات لاختنقت من سيل المياه وأمام فاصلة صمت.

تابعت: لا أحد رأى كم حربًا وكم دمارًا بداخلي، بكيت في أوقات

من المفترض أن أكون سعيدة فيها، تحمّلت آلامًا أكبر مني بكثير، لذلك لا أريد زيادة أحزاني وخيباتي، أنت خذلتني قبل أن تبدأ صداقتنا، لا أريد أن تحزنني مجددًا، مررت بجروح لا يشفيها الزمن، ولا أريدك جزءًا منها، كنت سأستمتع بصداقتنا وتكون لي ملجأ لولا أنك جرحتني، وكما قلت لك مسبقًا لا يهمني مركزك وشهرتك بقدر ما يهمني شخصك يا محمد.

_ أعدك أني سأكون ملجأك الذي تهربين إليه، سأكون أقرب لك من نفسك، أغوص في قلبك وذكرياتك، وأكون أمين سرك حتى.

_ لكنني لا أريد حبًّا، آسفة لا، لا يمكنني حبك، لا أتوق شعور الحب، أتمنى أن تكون صديقي فقط، صديق حقيقي تمر في حياتي ولا تضر ولا تخذلني، وعلاوةً على ذلك فأنت رجل متزوج ولديك عائلة، لا يمكنني أن أكون العشيقة، آسفة.

_ يا مسك، أنا صارحتك بمشاعري وإحساسي تجاهك، لا تعترضي حبي لك، أول مرة أشعر بلذة الحب، اقضِ هذا الإحساس معي، قلبي يرقص لك.

وقفت عن الكرسي وهمَّت بالذهاب، وهتفت فجأة: إذا أردت الوجود في حياتي

بصداقة فأهلًا بك، وإذا أردت الحب فابحث عنه مع العاهرات، لستُ أنا ممن يدمر كيان أسرة لأجل مشاعر تافهة.

وغادرت بخطوات تنم عن عصبية ناعمة، هاتفتُ صديقتها المقربة مريم التي أقنعت مسك بتخطيط مَوْعِد لنا بمقهى لكي تعتذر لي عن

طردي من المسرح والتحدث معًا مرةً أخرى، كانت قد أخذت رقم هاتفي عندما خرجتُ مِنَ المسرح أمس، حيث مسك قالت لها إنها دفعتني، فهرعت تلحق بي تتأسف مني بالنيابة عن مسك، وأنها ستصلح ما بيننا أنا ومسك، كنت غير مرتاح في البداية، لكن عندما اتصلت بي في المساء تقول لي: تمكَّنت من إقناع نهاية لترتب لكما موعدًا في مطعم لتعتذر عمّا بدر منها.

فهاتفتها وأنا ما زلت جالسًا في المقهى وسألتها بتعجُّب: هي نهاية ليه مش عايزة تحب؟!.

قالت: ما حكتلك؟

_ لا، في ايه؟

_ بفضل تسمع منها، ولا أتدخل في التحدث عن خصوصياتها.

أغلقت الخط، عدت إلى غرفتي مبللًا بماء السماء، وقفت تحت الدش والماء الدافئ ينهال على جسدي الوزين بالاستفهامات التي وضعتها مسك في عقلي، كم هي مختلفة عن الأخريات!.

أعتقد أن اختلافها هو ما جعلني أتعلق بقلبها، يرتفع صوتي بالضحك عندما أتذكَّر ما قالته لي "إذا أردت الحب فابحث عنه مع العاهرات"، حيث تعابير وجهها الجافة وكم هيَ تزداد جمالًا حين تكون غاضبة، وأتساءل ما السر الذي لن تبوح به مريم بخصوص مسك؟ لا أستطيع أن أجزم أن مسك تأثرت بعلاقة حب فاشلة وإن لم يخب ظنّي في ذلك فهي الطرف المتأذَّى، لذلك تبتعد عن أي طريق يؤدي إلى الحب، أعلم أن بداخلها حبًّا نحوي، لكنها تقسو على مشاعرها وتتفادى إظهارها، احمرار

وجنتيها وخجلها عند رؤيتي ورجفة صوتها عند حديثها أمامي، وبريق عينيها المتلألئ بملامحي، وأكاد أسمع ضربات قلبها، كلها علامات لا تشي إلا بحبي، لكنها صعبة المنال، لن تستسلم لمشاعري بسهولة، وأنا سأجعلها تثق بحبي لها بجنون.

أنهيتُ ارتداء ملابسي وصلَّيت العشاء والتحفتُ غطاء السرير وجلستُ أمام نافذة واسعة قليلًا على أريكة جلدية أنظر إلى شعاع القمر الناعس يخترق حبيبات ثلوج باريس الساقطة بهدوء، كأنها رنَّات موسيقية خرجت من لحن رومنسي دافئ تتراقص بالفراغ إلى أن تلمس الأرض لتتراكم على شكل طبقة فوق القشرة الأرضية ببياض من سماء الجنة، التقطت هاتفي ودخلت على تطبيق إنستغرام وضغطت المراسلات لأجد اسم مسك، وأكتب لها: مساء الخير أيتها الأميرة الغاضبة، أرجوكِ لا تقومي بحظري، فأنا أراسلك لأقول لك موافقٌ على صداقتك.

وبعد ستة دقائق رأت رسالتي وكتبت لي: _ متأكد محمد، صداقة فقط؟

فقلت: لم أكن أعلم أن العلاقات تحكمها النساء، لكن لو هذا الذي يريح مسك فاستسلم لأجلها.

_ محمد، أنا لا أريد إرغامك على صداقتي، فلو مش مرتاح بالعلاقة بطريقتي سيبني.

_ أسيبك ايه يا مسك!.

إنتِ مجنونة!.

_ بصراحة!.

_ ايه؟

_ أنا بعرف إنه مِن الصعب الشخص يحول مشاعره من حب لدرجة أقل وهي الصداقة، وأنا عارفة إنك قلت موافق على صداقتي، لكنك بنفس الوقت أنت مش متقبل صداقتي!.

أنت عايز تقرب مني وتبذل أسباب توقعني بحبك وتأمل أن يومًا ما سيدق قلبي لك، أليس كذلك؟!.

تأملت كلماتها مطولاً قبل أن أرد على تحليلاتها العميقة لحقيقة مشاعري بهذه الطريقة العجيبة!.

كيف وهي في هذا العمر تتحدث بهذه الفلسفة!.

نعم، صادقة، لم تخطئ بكلمة، وأفقت وأنا لم أقتنع بعلاقة صداقة، ونعم، آمَلُ أن يومًا ما سأنجح بقلبها، فسألتها بجرأة:

مسك!.

مريتي بقصة حب واتخذلتِ؟!.

فكتبت: ثواني وبرجع لك، مشغولة.

_ تمام، براحتك، مستنيكِ

الساعة الحادية عشرة وست عشرة دقيقة قبل منتصف الليل، وصلت لي رسالة من مسك تقول لي: محمد، أرجوك لا تسألني هذا السؤال مرة أخرى، من وقت ما سألتني وأنا متوترة ومتعصبة.

فقلت وقد اقتنعت الآن بتفسير أفكاري بتأذي مسك من علاقة حب:

متأسف يا روحي، أنا آسف، كنت بحاول أقرب منك وأكون صديقك، الذي لن يدعك للأحزان.

ـ متشكرة جدًا، بحكيلك بالوقت المناسب، أشعر بأني لا أريد التحدث بهذه المواضيع الآن.

ـ تمام براحتك يا روحي.

ـ يا ريت من غير "يا روحي".

فقلت ممازحًا: يبقى يا قلبي، لأنك في قلبي.

ـ محمد، هذا كلام أعتبره غزل، وأنا لا أريد أن أسمع هذه الكلمات من صديقي، ممكن؟

ـ أنا حاسس إنها كلمات تليق بكِ، لهذا أقول ما يجول في خاطري دون تردد وبلا أن أكترث لشخصيتي العامة، وأضفت كما لو أنني أحاول منعها من المجادلة: وبتمنى ما تصديني، لأني بحب أتعامل معك بحقيقتي وعفوية، لكن بالمقابل لا أتمنى لحظة أني أفرض عليكِ قبول كلماتي، خاصة لو إحساس كتبته من غير تفكير، وقتها مش هقرب بإحساسي وهبقى أفكَّر بكل كلمة تخرج من فمي، بس هذا سيفقد إعجابي بصداقتنا..

ـ أشكرك على صراحتك، حبيت أنك تتكلم اللي فقلبك، أنت حقيقي بجد.

ـ مثل ما كسرت قيود معاكِ يا مسك أتمنى إنه يكون بيننا صداقة خاصة، بدون قيود وبدون تفكير، ونقرب لعالم خاص فينا، صداقة روح قبل صداقة جسد، شيء أعلى مِن اللَّهفة وأقوى من الحب.

ـ بس دي مش هتكون اسمها صداقة!.

ـ يا مسك، افهميني، احنا لينا علاقتنا وقربنا، براحتنا، نقرب علشان نرتاح ونفضفض لبعض، يعني لو حسيتِ بأي إحساس تقوليه، حتى لو قلتِ "بحبك يا محمد"، أنا هفهم إن جواها صداقة من غير ما تقولي "بحبك يا صديقي".

ـ لكن دا صعب عليَّ، لأني بصراحة مِش مُتقبِّلة الكلام اللي بتحكيه!.

ـ مش هَمْنع نفسي من رأيي فيكِ وخصوصًا إن إنتِ صديقتي الوحيدة، علاقتي فيكي شيء جميل في حياتي كمحمد رندلّي ومش هحرم نفسي من الوضوح في كلامي.

وأردفت: وإذا حدث ما تريدين فأنا لن أستطيع التمسك بحبل صداقتنا، فأنت تقيديني بأصفاد شروطك، وهعاملك كمجرد جمهور!.

كنت هكون مبسوط جدًا لو نصنع عالم خاص فينا نهرب إليه من أخطار الحياة، بدون عوائق ورسمية، لكن إنتي لم تعجبك كلماتي ومش متقبلتيها، ايه الحل برأيك؟

ـ الحل إننا نبعد، آسفة لا أستطيع إكمال حياتي بهذه الطريقة.

ـ تمام يا مسك فرصة سعيدة، مع السلامة.

***

يحدثني قلبي: دي مش سهلة يا راجل!.

أنا بحبها موت وبحب عنادها، هي دي اللي بدق علشانها، شراستها

لطيفة وآسرة، مميزة ومختلفة عن كل نساء العالم!.

أُطلق إنذار الطوارئ داخل أحد أعضاء دماغي ليحدثني عقلي: أنت راجل كبير ليك قدرك وقيمتك للعالم العربي كله تتصرف كده ازاي!.

أنت مجنون بتركض زي الكلب وراها!.

والمعجبات طوابير على ما يسمعوا منك حرف، متزعلش مني!.

أنت واحد غبي، متسبها يا عم وشوف نفسك أنتا فين وهي فين؟

يرد قلبي مرة أخرى ببرود: متردش عليه، سيبو يهوهو براحتو.

أجاب العقل بسرعة واستهزاء: هو هو هو وأضاف حركة دلع اللسان لاستفزاز القلب.

أضاف القلب بتجاهل: أنتا مش بتركض وراها لأنها أساسًا بين أحشاء ملكيتي، لو رديت عليه سوف أنكسر من الألم وصعب تلملمني، أحتاج وقت طويل لترميم الكسر، أرجوك لا تستجيب للحمقاء.

فقال عقلي مقهقهًا:ه حمقاء!.

واستطرد حديثه بغضب: لاء أنت الأحمق، خايف على نفسك تتكسر يا أناني، مبتسمعش قول "اللي يتكسر يتصلح"، كلها كم يوم وبترجع طبيعي، أنتا كده بحساسيتك ومشاعرك المقرفة دي بتخرب حياة الراجل.

رد قلبي بسخرية: تعالَ إليَّ لأريك كيف أخرب الأشياء وأركلها بقدمي على مؤخرة رأسك يا صفيق، دي أحلى حاجة حصلت لينا، حتى اسأل هرمون الدوبامين والسيروتينين والأكسيتوسين كيف اتنشطوا،

اسأل الخلايا الميتة التي ترتعش عند رؤيتها، بل واسأل نفسك أيها الأحمق كيف تغير كيانك كله فأنت المسؤول المكفل بالجسم، ألست أنت المدير يا عقل!.

سكت عقلي انهزامًا أمام قلبي، فعندما ينزف القلب حبًا يغيب العقل طواعية وخضوعًا، ومهما تكون قلوبنا هشة ورقيقة، فإنها تقوى على كل من يعارضها الرأي ولن تستسلم لحكم العقل، فالعقل يفكر بمنطق والقلب يفكر بعاطفة، العاطفة تفوز على المنطق غالبًا، لأن فطرتنا خلقت من رحمة ورأفة، نعتقد أن العقل والجهاز العصبي المسؤول الأول عن الجسم وخلاياه، لكن عندما تلتقي الأعضاء في محكمة الدفاع سنجد القلب الرابح في قضية التحكّم بالجسم والقرارات حتى وإن كانت حاسمة، لا أنكر أن العقل محق!.

لكن قلبي يخبرني بمشاعري ولا يتجاهلها كما يفعل المنطق!.

أشعر أن القلب يتفهم إحساسي بجميع أحوال الاختيارات المتاحة، وينصحني بالمفيد منها، أحيانًا نقع في سؤال متعدد الاختيارات فيه إجابتين خاطئة وإجابة صحيحة وإجابة أخيرة أصح من الصحيحة، هي التي تشعر بأن قلبك اختارها وميزها عن تلك الصحيحة، فلا يمكننا أن نختار الصحيحتين فالقلب لا يتسع لهما ولا يمكن أن نتركها خاوية دون إجابة، فبقلبك ستضع الإجابة الثاقبة.

صباح اليوم التالي: أرسلتُ رسالة صوتية لمسك قلت لها فيها: صباح الخير صغيرتي، أنا مسافر مصر ومش هسيبك أبدًا، راجعلك، مضطر

أسافر علشان شغل، وهرجع باريس المرة الجاية علشان شغل، هشوفك ووقتها هتشوفيني كحبيب، سلام.

انتظرتُ ردّها مطولًا ولم تجب.

***

بعد أيام لا أعلم عدّتها..

استيقظتُ على صوت اهتزاز هاتفي المحمول.

_ ألو، سيد محمد، أنا مريم.

_ ايوه مريم، في ايه عالصبح!.

_ هعمل معاك معروف، لكن بشرط ما تحكي لنهاية إني اتصلت عليك.

_ أسمع الأول، عندك ايه؟

_ اسمع، أنا عارفة إني كده بخذل نهاية لأنها حذرتني ما أتدخل، لكن أنا عارفة إنها غلطانة.

_ اي بس طيب!.

فيه ايه؟

_ .....

(صمت)

_ نهاية جرالها حاجة؟؟ اتكلمي فيه ايه!.

_ لاء، ما تقلق نهاية بخير.

_ طب اتكلمي، أنتِ اتصلتِ عليّ من الصبح تعصبيني.

_ أنا آسفة، مش عارفة أنطقها.

بضجر قلت: لا حول ولا قوة إلا بالله، لو متكلمتيش أنا هقفل الخط!.

_ استنى بس، خلاص هقول..

_ .....

_ .....

ألححت عليها بالسؤال فصرخت: متتكلمي!.

قالت: نهاية رح تتزوج.

_ صحت بصدمة: اييه؟ إنتِ متأكدة!.

إنتِ بتقولي ايه، أكيد بتهزري!.

_ بص أنا عارفة إنه صعب عليك، لكن هي دي الحقيقة.

_ طب فين وامتى؟!.

_ هكلمك بعدين، نهاية جت، يلا سلام سلام.

في الدقيقة نفسها حجزت تذكرة إلى باريس، رحت لمراتي وحكيت لها إني مسافر حالًا، استنكرت زوجتي سفراتي المتوالية إلى باريس، مع أنني كنت أسافر بين الحين والآخر من أجل أعمال معينة، لكن هذه السفرات أثارت شكوكها بأن شيئًا ما مختلفًا عما مضى، فسألتني بترقّب ونفاد صبر:

في ايه بفرنسا!.

أنت كل حياتك صارت هناك!.

وأنا هنا ايه يعني رجل كرسي مثلًا؟!.

فقلت لها بفظاظة: وأنتِ من ايمتى بتتدخلي بأعمالي!.

_ أعمال ايه اللي صارت كل شهر بباريس!.

_ لا شأن لك بأعمالي، وأضفتُ بغطرسة: أنا لست شخصًا عاديًا، ولا إنتِ شيفاني غير كده!.

_ شخص عادي والا مش عادي، أنتَ بعيد عننا أنا والأولاد.

جلجلت بعصبية: إنتِ هتحاسبيني!.

من إيمتى يا هانم بتهتمي ليا!.

_ من لما قلبت علينا..

_ بصي، أنا مش عايز أتخانق، أنا مسافر باريس، وحالًا، حضري لي الشنطة ولو مش عاوزة عادي بحضرها بنفسي.

تجهزتُ وأقلعت الطائرة، وصلت لي رسالة من مريم وأنا أحلق بفضاءٍ عالٍ من لوم نفسي على عدم محادثة مسك هذه الفترة الماضية حيث آخر كلمة قلتها كانت "فرصة سعيدة يا مسك، مع السلامة" متأكد أن الذي دفع مسك للزواج هو أن تبعدني عنها، فهي لن تقع بالحب بسهولة!.

تقول مريم بالرسالة: أحمد عامل مفاجأة لمسك ليعرض عليها الزواج في المسرح بتاعنا الساعة العاشرة مساءً بتوقيت باريس.

أصبح رأسي متفجرًا بالغضب، واشتعل صدري بالانتقام لحبي من أحمد هذا الذي لا أعلم عنه شيئًا، أفقد عقلي حين تأتي خيالات سريعة خبيثة في عقلي بلمس أي شخص لملكيتي!.

أحسست بطول طريق السفر هذا كأنني ذهبت مشيًا على أقدامي بخطوات حيوان الكسلان متخلخل العظام، أو سلحفاة كبيرة السن، فالبشر بطبيعته عندما ترتابه المشاعر السلبية يشعر بأن الزمن مُتوقِّف أو يسير بتلكُّؤ شديد، يدفعك لحسب الثواني التي لم تعطِ لها بالًا مذ خلقت.

وطئت أقدامي أرض باريس في تمام الساعة التاسعة مساءً، طلبت رقم هاتف السائق السوري الذي تعرفتُ إليه مسبقًا، واستعجلته في مشوارٍ طارئ إلى مسرح شموخ، أثار طلبي دهشة السائق وجعل يسأل بشكلٍ أشعرني بأنه يريد معرفة التفاصيل، فأوقفته عند حدِّه، وقلت له بغضب: أنتا هتيجي معي وأنتا ساكت والا أشوف غيرك؟

قال: الله يسامحك يا غالي، أنت بتؤمر.

بعد سبعة عشر دقيقة من فوضى عارمةِ التوتر واضطراب أفكاري حضر سائق التاكسي، لن أكذب أنه ظل صامتًا ولم يتفوه بكلمة لولا تدخلي أنا، فسألته: أنتَ قصتك ايه مع مسرح شموخ؟ حاسس في كلام كبير حتقولو!.

فضحك عاليًا وقال: يعني أنتَ مُصر تعرف؟

فأجبته بحماسة: جدًّا.

قال: أنا كنت واحد منهم، يعني عضو من المشتركين متلي متلن،

وغدروا فيّ كتير، وكنت بسامحهم كل مرة، لحد ما استباحوا إهانتي وطردوني من الفرقة.

_ طب ليه!.

_ لأني طيِّب و"غلبان" متل ما بتحكوها بالمصري وضحك بطريقة أحسست بوجع كسر في قلبهه، وأضاف تنهيدة تنم عن ضغط كبير يثقل صدره.

فقلت: طب معلش متفهنيش غلط، ممكن أنت عملت حاجة جرحتهم أول!.

_ معاك حق بس الغلط اللي عملتو إني متصرفتش صح.

_ ازاي؟

فقال ببرود: إني ما وسخت إيدي بالدم!.

_ علشان؟

_ علشان حقي راح يا حبيب.

_ في ايه؟

_ في شغلات كتير، بلالك من هالقصة، احكي لي أنت، شو رجعك لهون؟

_ ما بعرف، فيك تقول مشاعري..

_ يعني اقتنعت إنه تحليلاتي صح؟

_ صحيح..

وأضفت: أنا أول مرة بكون صريح مع أي حد، لأن الشهرة صعبة، ومبحبش تكون حياتي على مرأى المشاهدين الذين لن يملو من التعليقات السلبية والتدخل في حياتي الشخصية.

ـ بعرف، حسيت فيك من أول كلام بيننا، بس أنت مش مبسوط هلاء!.

المرة الأولى صحيح كنت متخبِّط بس كنت مبسوط.

ـ البنت اللي حبيتها قررت تتزوج، إذا ما حاولت أنهي الموضوع فستستمر أيامي بدونها.

فسألني بفارغ الفضول: أنت حبيت مين فيهم!.

فنظرتُ مطولًا إلى عينيه عن طريق المرآة وسط الزجاج الأمامي للسيارة دون أن أكترث للإجابة عن سؤاله، لا أعلم ما الذي دفعني لإخفاء اسم حبيبتي عن هذا الشخص، افترض أنني خفت أن يحدثني بشيء سيئ عن حبيبتي!.

لم أعلم حقيقة مشاعري في تلك اللحظة إلى الآن، لكن لم أجبه خشيةً أن أفقد مسك أكثر، فالذي يهمني ما هي عليه الآن.

فسألته عن اسمه، قال لي : محسوبك أخوك رياض.

فقلت له: رياض، تشرفت، أنا واثق بك، أنت من اليوم سأتعامل معك فقط في باريس.

ـ على راسي.

دخلتُ المسرح الواسع أسير بمنتصفه على سجادة حمراء يرص جانبيه الكراسي المثبتة بخطوات مرهقة تترك بين القدمين نيرانًا تثقل كاحلاي، أرتدي بدلة رسمية فخمة وهيئتي تغري أجمل الفتات، جعلت كل من يراني يلتفتُ نحوي ليحظى بنظرة خاطفة مني، لكنه لا يهمني شيء سوى حبيبتي التي تعتلي خشبة المسرح وشخص أظنه أحمد لأنه كان راكعًا على قدمه وبيده خاتَم ألماسي بسيط يمدُّه بيده إلى أعلى، ينتظر منها جواب القبول، كانت ترتدي فستانًا أخضر من الحرير الناعم، يرسم خصرها بقلم رسَّام بارع، بينما كان أحمد ينتظر هتافات الحضور وتصفيقهم الحار لعرضه الجادِّ، إذ وجدهم يحدقّون بالشخص الأنيق الثريّ الذي قَدِمَ يسير كرجل مافيا له كاريزما باهظة، الأمر الذي أثار دهشة الحضور أكثر من عرضه للزواج، فعبس أحمد بوجهي في انزعاج، والتفتت مسك اتجاهي التي ما أن رأتني فاتسعت عيناها بالدهشة ثم ابتسمت ابتسامة هادئة وقالت: موافقة.

رفعتُ حاجبيَّ باستغراب، أتعجب مِن صلابة قلبها الرقيق أمامي!.

ألهذه الدرجة تكرهني!.

حتى تتعمّد إيذائي بهذه الطريقة القاسية، طعنتني في قلبي برمح من جهنم، اعتلى صوت الهتاف وشاركتهم في التصفيق ومسك تراني وأنا أصفق لكذبتها وأنا أردد في عقلي: لماذا وافقتِ على جرحي وأنت مكان أمان قلبي وطمأنينتي الوحيدة؟!.

كيف لضلع يسكن في صدري يتمرد على باقي الأضلاع ويحطمها هكذا!.

رفعتُ يدي ألوح لها وأنا أبتسم، ثم ابتسم أحمد ابتسامة جانبية ساخرة موجهة لي أنا فقط، فلففتُ نفسي أخرج من حيث جئت، تيقَّنت أن أحمد ذاك هو الشخص الذي بقيَ واقفًا دون حراك في المرة الأولى التي دخلت بها المسرح، تبلَّدت مشاعري تجاه مسك مع كل خطوة أخطوها وأنا خارج، لا أعلم مشاعري حينها، أظن أني كتمتُ غيظًا حارقًا قتل لهفتي إزاء مسك، وهنا استمعتُ لعقلي في حواره مع قلبي، فابتدأ كلامه بالمنطق يقول بشماتة: شفت!.

شفت ايه اللي جرى يا افندم!.

قلتلك سيبها دي هتخرب حياتك مردتش عليَّ، تستاهل أهو قليل عليك كمان.

فقال القلب بتعب شديد: مش مهم حصل ايه دلوقتي.

فقاطعه العقل يصرخ: المهم ايه يا حيليتها!.

فقال بحزن وانكسار: المهم إني تعبان جدًا دلوقتي.

فرد العقل وهو يربط يديه إلى صدره بهدوء وكأنه تعاطف مع حزن القلب: كان لازم إنك تتوجع علشان تفكر برشد قبل ما تتحرك، متزعلش مني بس أنت تستحق اللي حصل معاك، أنا نصحتك وأنت طنشتني.

ـ مهي تتحب فعلًا.

ـ مش دايماً نسمح لمشاعرنا بس اللي تتحرك لوحدها، المفروض نفكر بعقلنا كمان ونستشيره.

فتمتم القلب بكلام متقطع: خلاص..

خلاص...

معاك حق...

بس...

بعصبية العقل قال: بس ايه يا حمار!.

أنت متعلمتش.

وهو يضرب على رأسه بيديه أضاف: عمره ما هيتعلم، دا غبي.

ـ كنت عايز أقول بس برضو أنا جرحتها، ويمكن دا عقاب ليا علشان أحس فقلبها..

ـ يا بني آدم، قصدي يا كلب، يا..

يا..

قلب، افهم، أنت حو..

ما..

رر...

ـ رد عليه القلب بازدراء: متشكر.

ـ العفو أوي، ما دام هيَ اللي سابتك، اتعلم متحاولش تركض ورا

حد علشان متتكسرش تاني، ومترجعلهاش لأنها متستاهلش.

وأضاف بهدوءٍ شديد: أحيانًا نستحق أننا نتكسر ونتوجع علشان نرجع لعقلنا ومنطقنا وتبدي تقرر تنهي رغبتك في بعض الأمور اللي مخربة حياتك، وتعيش وقتك كلو لمصلحتك بس، فلما القلب يتعب هترجع تلقائيًا لعقلك لأنه ببساطة ملكش غيره.

***

في تمام الساعة الحادية عشر ليلًا، أنساق عبر الطرقات المبللة مشيًا على أقدامي والمطر يغسلني بمائه المنهمر، فاستوقفني السائق رياض، أطل رأسه من شباك سيارته وأومأ لي بالركوب، ركبتُ وأنا أخلع جاكيت البدلة، فقال رياض حين كنت أبعد بيدي قطرات ماء السماء عن وجهي: أنت مجنون بتمشي بالشارع هيك.

فالتزمت الصمت.

فعاد يقول: آسف إذا زعلت من أسلوبي، بس خفت عليك.

_ معلش، ومعاك حق، لو لم أكن مجنونًا لما كنت بهذا الحال الآن.

فضحك بشدة وقال مداعبًا: في مستشفى خاص بالمجانين قريب من طريقنا، بتحب أوصلك؟ ومتقلقش أنا بدفع العدَّاد.

هززت رأسي وأنا أبتسم، وانزويت في صمتٍ جديد، لم أشعر بالوقت ولا المسافة، كنت أوجه بصري إلى أضواء باريس الليلية اللامعة كنجوم الليل في سماء مظلمة، وبصيرتي منشغلة في مسك وما فعلته بي، لولا أن رياض قال لي 'يلا انزل" لما كنت منتبهًا لوجوده أساسًا.

فقلت له: أنت جبتني فين؟ وأنا أبحث بعينيَّ عن الموقع.

فقال مازحًا بلغته: لو عقلك بمطرحه كان عرفت وين أنت، بس المشكلة إنه المجانين ما فيهن عقل.

وأضاف: انزل يلا، رح نقعد هون.

فقلت ضاحكًا في أثناء خروجي من السيارة: ليه هو عقلي هيكون فين يعني..

_ في قلبك.

_ صحيح، يخرب عقلك، أنت ازاي بتعرف كل ده.

جلسنا في مقهى وطلب رياض كوبين من القهوة الباريسية خالية السكر مع زجاجتين من الماء، وقال يعبث معي: أنت بتحاسب عن حالك وأنا بحاسب عن حالي، ايوا...

كلشي إلو حدود يا اخيه.

فقلت أعبث معه أيضًا وقد شعرت بتحسن مزاجي: أنت بتهزر؟!.

أنا ما طلبت شي، ما دخلني، الحساب عليك أنا مبيتضحكش عليا يا افندم .

ثم بعد صمت طفيف قلت: تعرف يا رياض؟ _ شو.

_ أنا أول مرة بحياتي بكلم حد بالطريقة دي.

_ كيف يعني؟

_ مجرد إني قاعد معاك، دا شيء جديد في حياتي، كل حياتي شغل وكتابة

وتصوير، وأصدقائي قليلين جدًا ومصاحبهم علشان أعمالي وبكون حذر في كلامي معاهم، لأن بخاف يتسرب أي خبر عني، بس أنت ارتحت لك يا رياض وبكلمك عن نفسي بدون تردد.

ـ إلي الشرف يا أخي.

ووضع يده على صدره وأضاف: وأنا أخوك بعهد الله.

ارتشفنا القهوة وسألته: عمرك كام يا رياض؟

ـ ٣٣ سنة

ـ الله، ايه الصدفة دي، وأنا كمان عندي ٣٣ سنة.

ـ سبحان الله.

ـ سبحان الله.

ـ أنت متجوز؟

فقلت بلحن حزين: اه.

ـ عشان هيك مقدرتش تنهي الزواج؟

ـ بصراحة، لاء.

ـ والا شو!.

رفعت إليه عينين مليئتين بالدموع وقلت: أنا أول مرة بحس إني بني آدم وعندي مشاعر بتتحرك، وحبيتها كتير لدرجة إن خيالها مبفارقنيش، تعرف؟ أنا أصلًا حبيتها قبل ما أشوفها، ولما شفتها عشقتها وأدمنت وجودها في عقلي، بحس حياتي بدونها ولا حاجة.

بس هيَّ مش عايزة تحبني، مش عارف هو ناقصني ايه علشان متحبنيش!.

وأضفت وأنا أنفث زفيرًا كئيبًا: عالأغلب لأنني متزوج.

ثم أردفت وأنا أضحك عاليًا: لأنها مرة حكت لي "أنا مش عاهرة لأخرب عائلة وفيها أطفال".

أكملت بحزن ثانيًا: بس هيَّ مش عارفة إن العيلة اللي بتحكي عنها مفيهاش حب ومفيهاش مسك زيها.

ضمّ رياض شفتيه متأثرًا بحكايتي وهو يقول: شوف أخي، اللي بحياتك هاد عمرك ما رح تغيرو، هو صار وخلص، أنت اشتغل على نفسك وابدأ بتصليح أمور حياتك.

قاطعته: أنا عارف الكلام ده كلو، وعارف إن الطريق الصحيح المفروض أسلكه هو طريق حياتي المعتاد وأرمي اللي رماني ورا ضهري، بس مقدرش..

حقيقي مقدرش.

فتمتم رياض بكلام لا أعلم حقيقته، حسبته يقول: بعرف، اسأل مجرب.

فرديت عليه: قلت ايه؟

قال مستنكرًا: لا، ولا اشي.

بعد مرور ساعة وثلاثة عشر دقيقة

في غرفتي، على السرير، أغمض عيوني لأنام.

يدق الباب فجأة وبدون موعد!.

تجاهلته، ثم تكرر طرق الباب بشكل متوالي قليلًا، فعزمت على فتح الباب بعد ارتداء جاكيت البيجامة، وضعت يدي على مقبض الباب وأنا ما زلت مستغربًا من الطارق، فتحت الباب بصدمة قلت: مريم!.

في ايه بالوقت دا؟ وعرفتِ مكاني ازاي؟

قالت وهي تدخل دون أن أسمح لها وهي تلهث أنفاسًا متقطّعة: خليني أدخل الأول وبعدين أفهمك.

أجلستها على الأريكة وناولتها كوب ماء، ارتشفت منه قليلًا وبقي الكأس بيدها

فقلت بفضول وأنا واقف أمامها: ها..

في ايه دلوقتي؟

رفعت بصرها نحوي بتوتر قائلة: سؤال عرفت مكانك ازاي فرياض حكالي على عنوانك، أمَّا في ايه؟ فأخذت تجرع كوب الماء كاملًا على دفعة أخيرة.

استطردت مريم قولها: أحمد دا واحد واطي ميستهلش نهاية.

فقلت: وأنا مالي!.

فقالت بصخب يدل على عدم موافقتها كلامي: ازاي أنت مالك!.

أنت مش شايف نفسك عاملة ازاي بعد ما نهاية وافقت على أحمد!.

_ كنت..

_ كنت ازاي يعني؟ _ يعني نهاية متهمنيش خالص.

_ أنت بتضحك على نفسك بالكلام ده.

_ لاء، مش بضحك على نفسي، ودا آخر كلام عندي.

وقالت وهي تنهض تهمّ بالخروج: الظاهر إني غلطانة إني جتلك أساسًا.

أدرت ظهري نحو النافذة ووضعت كفتيَّ في جيب بنطال البيجامة غير مكترث لخروجها، فقالت وهي تحرك نظرها من أسفل قدمي لأعلى رأسي باشمئزاز وعصبية: وعلى فكرة، نهاية بتحبك.

ريثما تمشي في الممر قبل وصولها مقبض الباب، فاستوقفتها.

_ استني، قلتِ ايه؟!.

_ ايه إلى حصل دلوقتي!.

مش كنت مش مهتم!.

_ ايوا، بس إنتِ متأكدة من قلتيه؟ لأنه كلامك ممكن يغير كل حاجة!.

_ قلت اللي سمعته وخلاص.

فقلت متحمسًا: كرريه.

فابتسمت ابتسامة خبث وكرَّرت: نهاية بتحبك.

_ طب اقعدي فهميني كل حاجة.

رمت شنطتها وجلست وهي تقول: علشان خاطر نهاية بس هحكيلك كل حاجة.

وأردفت تسرد لي كالتالي: نهاية حبتك وكانت تتمنى تكملوا علاقتكم سوا، بس هي حكتلي إنها مش هينفع ترتبط بيك وأنت متجوز، وأحمد كان شاكك بينكم حب لما جيتلها المسرح، وعرف بالموضوع بطريقته الوسخة يمكن كان يتسمّع علينا بالخفية واحنا نتكلم أنا ونهاية أو عرف بأي طريقة تانية واستغل الصراع اللي هيَّ فيه وقدَّم لها فكرة إنهم يتجوزوا، وهي والله ما بتطيقوا وبعرف إنها بتكره الأرض اللي بيدوسها، بس وافقت علشان تخرج من حياتها ومترجعش تفكر فيها لأنها مش عايزة تخرب حياة عيلتك، وأحمد دا أرزل واحد في الفرقة، أنا أعرف عنه كتير أسرار توديه في ستين داهية، زي إنه سرق فكرة رياض بالمسرح، وهو السبب فإنه رياض يطردوه برا الفرقة بعد ما لفقله تهمة إنه بيأسس مسرح تاني وهيضم باقي الأعضاء فيه لأنه غير إن من نجاحه المزيف.

وأنزلت رأسها باستكانة وأضافت: وهو السبب فإنه نهاية خسرت حبها الأول.

أثار دهشتي هذا الكلام الناقص في حكايتي فطلبتُ منها التريث هنا على هذا الموضوع، وأن تشرح لي ببطء بخصوص موضوع خسران نهاية لحبها.

فأجهشت بالبكاء وهي تقول: نهاية كانت في علاقة حب مع رياض وأحمد فرقهم، وأنا كمان..

فقاطعتها: إنتِ؟ ازاي؟ بينما مريم غارقة بدموعها، جلبت لها مناديل

ورقية لتستعيد تركيزها وتكمل لي الحادثة.

فقالت وقد بانت على ملامحها الندم: أحمد ضحك عليَّ قبل ما أعرف عنو أسراره، وعشمني إنه بيحبني وهيتجوزني، اتفق معايا إننا نخدع نهاية وإني آخد دور بإني أشككها في أخلاق رياض، بس هيَّ كانت واثقة فيه جدًّا، لحد ما..

لحد ما حاولت إني أغري رياض فيا بطلب من أحمد، وأكملت وهي تزداد بكاء: أنا كنت مضروبة على دماغي والا ايه مش عارفة، بس اللي حصل حصل، وكان أحمد مخطط إنه نصور فيديو يبان فيه رياض وتشوفه نهاية مع وحدة تانية اللي هيَّ أنا، رياض طبعًا رفض إنه يقرب مني ورفض حتى يكون في مكان أنا وهو لوحدينا، وأنا حاولت كتير معاه علشان أحمد يحبني ويتجوزني، وأحمد كمّل الفيديو المطلوب بالفوتوشوب ووصله لنهاية عن طريق إيميل وهمي وعلى أثر هاد الفيديو قررت تتركه، واتقلع رياض من دسائس سم كلمات أحمد من الفرقة، وبكده نهاية خسرت حبها، ورياض حاول معها يثبت براءته، لكن للأسف نهاية مصدقتهوش، ورياض خسرها وخسر شغله وفكرته الأساسية بتأسيس المسرح.

فقلت: طب إنتِ محاولتيش تبيني الحقيقة؟

ـ مهو أنا لو قلتلها هتكشف إني مساعدة أحمد في عملته الوسخة، ويمكن متصدقنيش إني مليش دخل في عمايلو التانية!.

أحمد كان دارسها صح ومخطط لكل شيء، ويطلع منها مثل الشعرة من العجين، ومن حقارته بعد ما نهاية سابت رياض واحنا في المسرح

جيت عايزة أحضنو فصدّني وقال لي: إنتِ عبيطة، أنت مفكرة إني أحبك أنتِ، والا أتجوزك، وأضاف يضحك ساخرًا: مكنتش متوقع إنك سلعة سهلة رخيصة كده، متحاوليش تلمسيني علشان أنا مبحبش الرخيصين، ومتفكريش إنك تحاولي تقربي مني وإلا هفضح كل حاجة عملتيها.

أنا كنت أمام صدمة كبيرة، كلو كذب!.

ومش بس كده، أهانني بأبشع الطرق، أنا كل اللي عملتو علشانو وبالآخر يعاملني كده!.

لا أكذب عليك بأن نفسيتي تأثرت جدًا، فأنا توسختُ من قعر حقارته، يكفي أني خذلت أقرب صديقة ليّا، ولو عرفت مش هتسامحني أبدًا، ورياض دا طلع جدع جدًا مفتحش سيرتي لنهاية أبدًا ولما شفت تعامله بلطف كده حكيتلو القصة كلها وإن أحمد السبب ورا كل حاجة، وإنه ضحك عليّ وكنت مغمضة عيوني عن كل حاجة عند كذبه عن الحب.

واصلت حديثها وهي تزداد بكاءً: أنا خربت حياة نهاية، دي بسبب اللي عملتو فيها راحت لدكتور نفسي.

قلت لها أواسيها: خلاص، ارحمي نفسك، اللي حصل حصل متقدريش تغيريه.

ـ أنا مليش حد غير نهاية، ولو خسرتها هبقى لوحدي.

ـ متزعليش مني، هقولك بصراحة إن لو دا حصل وبقيتي لوحدك معناها الدايرة وصلتك، يعني اللي بتزرعيه النهارده بتحصديه بعدين، وزي ما نهاية صارت لوحدها يومًا ما وأنت السبب، فبدون شك هتكوني

وحيدة علشان دا عقابك في الحياة، زي ما جرحتي هتتجرحي.

فانتحبت بالبكاء مجددًا: أنت هتخفف عني والا تزيد عليّ.

_ انا بقولك حقيقة الحياة اللي عايشينها.

فقالت بغيظ: وزي ما أنت بتحس بمشاعر لوحدة غير مراتك، هيجي يوم ومراتك تحس مشاعر مع غيرك، مش دي حقيقة الحياة بتاعتك!.

امتعضتُ من كلامها قليلًا وقفت عدتُ إلى هيئتي على النافذة وكفتاي في جيب بنطالي وبقيتُ صامتًا لا أريد جرحها أنا أيضًا، وكذلك صمتي دليل على صدق قولها الجارح لكرامتي.

أيقظت عقلي بسؤال يتردد داخلي: أيعقل أن يحاسب الإنسان الضعيف على مشاعره وأحاسيسه يومًا ما؟!.

بعد صمت قليل..

مريم: أنا آسفة.

_ متتأسفيش، أنا فعلًا مفكرتش بالطريقة دي، وممكن تكون صحيحة للأسف.

_ موضوعنا مش هنا، المهم أنت ونهاية.

_ طب ليه مش نهاية ورياض!.

بما إنه مظلوم وكانوا على علاقة!.

أنا مبخنش ثقة رياض فيا بعد الخير اللي عملو معايا!.

بكفي إنه سمعني وضل ساكت عن القصص بتاعتو دي!.

_ منا لما كلِّمت رياض حكالي إنه شايف سعادتها معاك، وإنك بتحبها بجنون، أكتر ما هو كان بيحبها، وإن أنت عملت حاجات كتير علشانها ومجرد وجودك هنا وتاركك أعمالك لوحده دليل أنك هتسعدها أكتر منه، وقال كمان إن دي قصة قديمة مر عليها قصص تانية كبيرة أنسته حبه لنهاية، وإن شغله كسائق تاكسي مش هيوفر الوقت لكلام حب وخروجات وكده، وبعدين دليل براءته الوحيد هو أنا، وإذا نهاية عرفتوا هتتركني، فهو قرر إنه يضل في مكانو بعد ما اتعودت على عدم وجودو على انه نهاية تتكسر وتنخذل بيا وتخش بحالة نفسية صعبة تاني وممكن مترجعش مشاعرها ليه مرة ثانية بعد الصدمة الي حصلت..

علشان كده طلب مني محكيش خالص عنه لنهاية، ولا أجيبلها سيرته إنه مخنهاش وبريء..

هاااا...

قلت ايه؟

_ مش عارف..

عايز أسمع رياض الأول.

فأمسكت الهاتف المحمول واتصلت برقم رياض، لأسمع صوتًا يقول بلغة فرنسية معناه: الرقم المطلوب أصبح غير صالح للاستخدام.

فقلت: سأتصل بمكتب التاكسي الذي..

فقاطعتني مريم وهي تقول: متحاولش، رياض سافر

_ سافر!.

سافر ازاي؟ كنت معاه من شوية!.

_ وأعطاني هذه الورقة لك أمانة.

استلمتها وفتحت المغلف ثم قلبت الثنية الأولى، وإذ مكتوب عليه "اقرأه لما تكون لحالك".

فبدون أن ألفت النظر لمريم قلت لها: هقرؤه بعدين، وسألتها لأغير اتجاه الحديث: طب هنعمل ايه دلوقتي؟

_ هي حاجة واحدة بس.

_ ايه هي؟

.....

_ أنا أعرف عن أحمد حاجة هتخلي نهاية تقذفه من حياتها.

باهتمام شديد قلت: ايه؟!.

_ .....

_ .....

_ أحمد بالليل بروح يشتغل في بار، بوزع خمرة، وبشربها.

سكتت قليلًا ثم واصلت حديثها: أنت مسألتنيش جيت بالطريقة دي ليه!.

وجدتني في لحظة إدراك أنه فعلًا طريقتها وهي تجري وبتسارع أنفاسها،

ولما شربت كوب الماء وكأنه في مصيبة حصلت!.

بفضول واستغراب قلت: ايوه، هو حصل معاكي حاجة؟

التفتُ إليها في دهشة وهي تضغط على أصابع يديها بتوتر، بدموع حزينة وارتباك قالت: أنا رحت لبيت أحمد..

آآ..

أنا..

علشان أحكيلو يبعد عن نهاية..

وإنه ميستاهلهاش..

ثم مسحت دموع عينيها الصامتة بيدين مرتعشتين وقد امتلأت مشاعر قلبها بشجن غريب حتى بانت على ملامحها التردد والضياع، مضى وقت قليل في صمت وأنا في دهشة، لم أتكلم، لا أريد أن أضغط عليها، تركتها لحيرتها وتشوشها أنتظر الصاعقة التي سرقت نطق مريم لبرهة من الزمن.

بعد تصارع مشاعرها قالت وهي بالكاد تسيطر على انفعال مكبوت داخل قلبها بكلام متقطع: ككان كان سسكران..

وأكملت بشجن بالغ وبكاء لا ينقطع: وو وحاول يتحرش فيّ الواطي.

اتسعت عيناي من الدهشة، وأيقنت أن أحمد ذكر وسخ ودا مش من الرجالة، فكل رجل ذكر وليس كل ذكر رجلًا.،وفعلًا لا يستحق نهاية، وحدّثتُ نفسي: بأن مسك قضت على حياتها بسببي حتى تبعدني عنها!.

مش هتركها تخرب حياتها مع شخص وقح بالشكل ده، أنا لازم

أتصرف..

بس أتصرف ازاي وأنا مسافر بكرة مصر!.

ياه ما أصعب أن تكون واقعًا بين الحب والعمل!.

استعدت تركيزي بعد ما هتفت مريم وهي تلوح بيدها: أنت رحت فين!.

فقلت بتشتت الذهن: لا..

ولا حاجة..

بس بفكر بالطريقة اللي أحكي فيها لمسك عن النجس ده اللي اسمو أحمد، لكن أنا واقع في ورطة وهي إني مسافر بكرة الصبح.

ـ متقلقش، أنا مجهزة كل حاجة، الخطة بس عايزة تتنفذ.

ـ وهيَّ؟!.

....

أنت تسافر بكرة عادي ولا كإنك بتعرف حاجة...

***

في ليلة باردة قارصة، ليلة يكتسحها ثلج ودفء، يشاع في شوارعها العشّاق، هاتفتها وقلت لها: ما رأيكِ أن نتسكع في المدينة، نجلس في مقهى، أو نتعشى في مطعم هادئ أضواؤه خافتة، وعلى وقع موسيقى باريسية؟!.

بعد فجوة سكوت..

قالت: ممكن، أشعر بأني أريد الخروج لتغيير نفسيتي.

قلت لها: وأنا اقترحت هذا لأجلك، فاجأتها أني أسفل بيتها أنتظر حبيبتي تتجهز..

كنت قد استأجرتُ سيارة فخمة تليق بجلوس مسك فيها، انتظرتها على دفء هوائها قليلًا، جهّزت أغنيتها المفضلة، "ليلة لو باقي ليلة" وخرجت أترقب نزولها أتمشى ذهابًا وإيابًا، والثلج ينساب بهدوء كأنه يراقص نسمات الهواء على سيمفونية "كسارة البندق" معزوفة تشايكوفيسكي.

كان بإمكاني البقاء على دفء التكييف، لكنني أعلم أنها تحب التفاصيل البسيطة وتبجّلها، فبقائي في الصقيع ورؤية سعادتها بهذه اللفتة أفضل لي بكثير من الدفء، درجة الحرارة في الخارج كانت السابعة تحت الصفر، تأخرت حبيبتي قليلًا، أكره الوقت الذي لا توجد فيه، لم يكن تأخيرها عبثًا، حاشى، فقد أقبلت بكل أنوثة ورِقّة، خفيفة كالفراشة، رقيقة رقة الأطفال، مغرية كأعتى النساء، فيها مزيج عجيب من الإغراء والبراءة، يا الله ما أجملها!.

ترتدي فستانًا طويلًا ويغطي جميع جسمها لونه أسود من المخمل، يرسم تفاصيل جسمها المتناسق رسمًا دقيقًا، وشالًا يحمي أكتافها من البرد يضفي عليها رونقًا وجمالًا، وفوق الكتفين يتراقص عقد من الألماس الناعم حول عنقها تتلألأ أضواؤه بانعكاس لمعة أسنانها المبتسمة، يتعارك معه شامَتَيْن رأسيتين على جانب ياقتها اليمين، تنهار رجولتي من كتلة الإثارة هذه، كانت كلما تحبو بهدوء نحوي وهي تتماوَج بانسياب مَعَ

حَركة جسمها تتعارك التيارات المُتَصارِعة بداخلي لتتجنَّب هيجان الثورة، أشاحت بيدها خصلة من شعرها ووضَعتها خلف أذنها لتتدفق على كتفها كنهرٍ ناعم من ليل، بحضورها الأنيق هذا أنستني البرد، لا، بل شاع الدفء بمجيئها، أشعر داخلي ببركان يفور، أحاول السيطرة على نفسي، لكن، لن يهدأ ثوراني إلا بتقبيل يدها، فأقبلت عليها بتلهُّف، أجدني أمسك يدها أرفعها وأقبلها، وقلت لها: أرجوكِ لا تنزعجي من قُبلتي، فلكل يد قبلة، وليدكِ قبلة أطول مما يستلزم إذابتك، وأكثر مما تحتاجيه لنشوتك، راوغتني بالرد كعادتها تُخفي حيائها قالت: أين سنذهب؟ فقلت وأنا ابتسم مداعبًا: أشعر بالفراغ داخلي إما أن نأكل طعامًا وإمَّا أمتلئ بعناقٍ مديد.

فضحكت وهي تقول:، إذن سنأكل بالتأكيد.

شغّلتُ أغنيتها، وقلت لها: هذه إهداء من محمد لمسك.

ابتسمت بخجل، وقالت: هيَ مين مسك؟

قلت:ه امرأة خطيرة على قلبي، لا تعرفينها.

***

جلسنا على طاولة صغيرة في زاوية المطعم برغبة فتاتي، مزينة بالورد البيضاء والشموع تلتهب ضوءًا يتمايل على شمعدانها، حيث الموسيقى الهادئة في الخلفية، شعرت مسك بالانسجام والتوافق، وأشعر بسعادة عارمة معها.

أقبل النادل بلباس المريول والطربوش الأسطواني الطويل، بعد أن قدَّم لنا لائحة الطعام طلبتُ ماءً غازيًّا وحساء البصل وطبق الإسكارجوتس

الأصداف المطبوخة المحشية بمزيج شهي من الثوم والأعشاب والزبدة، انتزعت لائحة مسك من يدها وطمأنتها بحركة بحاجبيَّ وسبابة يدي أن تثق بطلبي لها، ابتسمت وهزت رأسها موافقة، طلبت لها عصير المانجا الطبيعي خالٍ من السكر وطبق من الأرز البخاري وسلطة السيزر بالدجاج، اندهشت مسك من معرفتي لأطباقها المفضلة، فسألتني بسرور وهي تبتسم: كيف عرفت؟!.

قلت وأنا أخفي أمرًا: على المحب أن يعلم كل شيء من لا شيء فتحرَّيت بداخلي وقلبي من دلّني.

ابتسمت بحياء والتزمت الصمت.

وأضفتُ وأنا أرنو إلى لمعة عينيها وانعكاس صورتي فيها: تعرفي؟ أنا بسمع قلبي وعقلي وهما بيتخانقوا عليكِ.

قهقهت بصوت خافت وقالت: كيف!.

طيب شو بيحكوا عني الآن؟

ـ عقلي بحكيلي دلوقتي وهو يلطم على رأسه: أنت مجنون قلت لها ليه إنك بتسمعنا

القلب رد عليه بصوت هادئ وعنيه بتلمع حب وهو ضامم كفتيه لصدره: خليه يقولها على كلللللللللللل حاااجة.

برد عقلي بعصبية: أنت هتسمع كلام المغفل دا؟!.

القلب يعلو صوته ويقول: المغفل هو أنتَ، ثم يعود لهدوئه ويضيف:

خليك بعيد أنتَ مش هتعرف الإحساس ده، مش هتفهم بالمشاعر وأنت مفتقر ليها.

فالعقل بيرد وهو متعصّب: يا سلام هو أنت..

أنت...

ت..

ت..

فتلعثم لسانه عندما أشاح بصره نحوك عندما كان غضبان فأكمل بهدوء شديد: دي جميلة جدًا، رهيبة، الله، حلوة أوي.

ثم عاد لوعيه فهز رأسه بثبات وسرعة يمينًا ويسارًا وواصل كلامه وهو ينظر إلى القلب وهو ما زال في هيئته ينظر لك ويضم كفتيه لصدره وعيناه تلمع بالحب: أنت يمجنون!.

هتعمل ايه دلوقتي في الحالة الي إحنا فيها؟

والقلب يتجاهله ولم يحرك ساكنًا.

كانت تتابع كلماتي ببهجة وتلتفت في اهتمام وأمان.

كسر رزانتنا النادل جاء ووضع أكواب الماء الزجاجية وقارورة الماء المزخرفة، ثم انصرف فقالت مسك: حلوة علاقتك بين قلبك وعقلك، حبيتها.

فقلت مداعبًا: عقبال متحبي علاقتي معاكي.

فضحكت وهي تقول: يا طويل اللسان .

ثم اتكأت بأكواعها على الطاولة ويديها على خديها بحركة جذابة فيها إغراء يفتك بقلبي وقالت ببراءة: احنا أصدقاء فقط يا محمد صح!.؟

تبسمّت وقلت بعد أن أطلقت تنهيدة وأنا أشبك أصابع يديَّ وأضعهما على الطاولة وأميل برأسي لأقترب من مسك: أنا بحبك يا مسك، بحبك حب جواه حب مش حب جواه صداقة.

وأضفت مازحًا: بعدين أنت لي مش عايزة تحبيني هو أنا ناقصني إيد والا رجل؟ _ لا لا، ما شاء الله عليك، بس أنت راج..

_ راجل متجوز.

قلت مقاطعًا.

_ أيوة.

_ طب لو قلت لك إني جادّ في علاقتنا وهتجوزك؟!.

حملقت في صدمة ثم أجابت في ضيق بعد صمت ثقيل: حاسة إنه مينفعش أزلزل حياة أطفالك ومراتك.

_ طب أنتِ كده بتعارضي حكم ربنا والتعدد موجود في ديننا!.

_ أستغفر الله، لا مستحيل أعارض حكم الله.

_ أومال لي مش موافقة؟ _ هتخرب علاقتك بمراتك و..

_ مسك..

_ نعم!.

_ أنا حاسس إنك بتحبيني ومش قادرة تعبري عن مشاعرك ليا،

افتحي قلبك اسمعيه وهو بيتكلم عن شعوره.

فقالت بحزن: أنا حاسة إنه لو صارت علاقة الحب بيننا هتخذل منك بحكم إنه مُقصِّر معايا فعندك مسؤولياتك وأعمالك وضيف عليهم عيلتك، أنا ما بطيق تحول العلاقات اللي بحبها لأشخاص تانية وأضعها برف الأشخاص الخاذلين، كان في عينيها توسل ورجاء عندما قالت: أنا عايزاك جنبي طول حياتي صديق عمري اللي عمره ما هيخذلني ويكسرني.

_ إنتِ خايفة لي كده بس للدرجة دي؟!.

قالت وهي ترفع حاجبيها بحزن: لأني اتخذلت كتير، وولا حاجة في حياتي حصلت حلوة من أول ما اتولدت.

_ مممممممم..

تابعت بصوت حزين: لم أكن طفلة في طفولتي، لم تكن حياتي في غزة حياة فالفقر كان مرافقني، لم نكن نملك مصاريف لأشتري أواعٍ جديدة أو جزمة جديدة، والا شنطة مدرسة عالأقل.

أكملت بابتسامة حزن: كنت شاطرة في دراستي بس كرهت مدرستي على قد ما كنت بتعرض لتنمر..

والحروب والرعب من أصوات القصف كلها عشتها من صغري، وفقدت أعز الناس عندي..

ذرفت سيلًا من الدموع الصامتة وقالت: أنا كل عيلتي ماتوا.

مفضلش حدا إلا أنا، علشان أتحسر وأتوجع على الذكريات طول

حياتي وعشت وحيدة..

تأثرتُ بقصتها وناولتها منديلًا.

فأكملت تقول وصوتها متقطع بتهدج ينذر ببكاء متواصل: شفت ليه مش عايزة أحرمك من عيلتك، لأنه أنا جربت شعور فقدان العيلة، مش عايزة حد تاني يشعر بيه بسببي، محدش رح يعرف حجم الشعور إلا اللي مجربه.

_ طب إهدي بس خلاص، أنا مش متحمل أشوفك بتبكي..

_ حاضر، بس هحكي لك عني كمان علشان تعرف بإيه مرِّيت فحياتي وإني مش عايزاك جزء من ذكرياتي السيئة الحزينة.

_ هسمعك طبعًا.

فواصلت وهي تركز في المنديل وتعبث به بين أصابعها: والقدر لم يكتفِ بوجع قلبي، لحد ما كبرت واتخطبت وحبيته كان كل حياتي وأملي اللي هيعوضني عن وحدتي وخسارتي لأفضل شيء في الحياة وهو العيلة، بس بعد سنتين من الحب والتخطيط للفرح للأسف استشهد الحب في غزة، وانقصف البيت اللي كنا نحلم نعيش فيه مع بعض وصار مجرد رماد..

لذلك قررت الهجرة خارج فلسطين كلها، ارتباط ذكرياتي الحزينة معظمها في غزة فتركت بلادي لأبعد نظري عن أماكن كانت سعيدة وتحوَّلت لآثار وبقايا كئيبة، لم أنجح أن أطلق ذكرياتي خلف الخراب وأسعَى نحو حياتي الجديدة، فالقدر يلعب لعبته ضدي والحياة شريكته

أيضًا حفرت ذكريات حزينة في قلبي وعقلي فلا تمر على نهاية ليلة هانئة، وخاصةً عند نومي تصطف ذكرياتي مقدمتها ذكريات منذ صغري ومؤخرتها ذكريات لكل يوم جديد أعيشه..

وبعد سفري، ضحكت بكدر وأكملت: وبعد سفري قصص تانية مؤلمة ويمكن أشدّ كمان..

ـ وهيَ؟!.

بمزاح قالت: خلاص تبللت من الدموع.

ربما حياتها الحزينة أكثر من مُجرد مواقف، فقد جمعت كنوز من الذكريات الحزينة والسعيدة، ألتمس حس مشاعرها المرهفة التي بقيت منذ طفولتها لتكبر في قلبها الدافئ المخملي يثقله ذكريات وطنها المهموم الذي عبرته من رائحة أشجار الزيتون المحملة برائحة الشهداء والحرب إلى وطنٍ باريسي جديد لتمضي الأحزان والذكريات كما تظن، ولكنها لم تنجح، فتعلق قلبها بغصن زيتونٍ عنيد لا يترنح مع هبات الريح العاصفة ويقاوم جميع الظروف القاسية ليقول لها أنت فلسطينية وأنت جزء من غرس هذه الأرض الطاهرة، الذكريات لعنة ستبقى معك أينما ذهبت، وأغصان بلادك تضلل سقفك البهيم بعد الفراق القسري الأبدي والتيتم من زهور الأمل.

فمسكتُ يدها وقلت وأنا أحنو على سطح كفها: أنا آسف على كل اللي عشتيه..

فعاد النادل مرة أخرى ومعه العشاء، ثم نشلت يدي عن يدها وقدَّم

لنا الأطباق على الطاولة شاركتني مسك مِن طبقي وأصرَّت أن أتناول من طبقها أيضًا، تلذذنا بالطعام وتبادلنا الأطباق بسعادة غامرة.

ليت الزمان يتوقف والجميع يختفي إلا مسك بينما أستمتع في هذه اللحظة الرومنسية، وأكتب إليها حكاية أنسجها من خيوط قلبي وأزرع لها من كلماتي أزهارًا ربيعية مخضَّبة تخضع أوراقها الخريفية أمامها انهزامًا وندمًا ليظل الحنين يرنو إلى أحضان الذكريات اللافتة في مستقبلها، أدعوا لها السعادة الدائمة بعد صبرها على مآسيها الكثيرة، وأن يعوضها الله العوض الجميل بعد فقدانها عائلتها، يا الله، إن وحدك تعلم حكمة أقدارنا، حتى وإن كانت بالنسبة لنا حزينة أو لا ترضينا...

ولا أنسى أن أدعوا لها بالهداية وخصوصًا أن تتحجب وتلبس اللباس الإسلامي الشرعي وأن تكون شامخة بحجابها في بلد التبرج وزمن الفتن.

فكلّمتها بهذا الموضوع لأول مرة، فقلت لها: مسك، ممكن أسألك سؤال ومتفهمينيش غلط!.

قالت متعجبة باستفهام: اي أكيد، اتفضل.

_ هو أنت لي مش محجبة؟

تنهّدت ثم قالت: تعرف؟ _ ايه؟

_ أنت أول حدا بيحكي معي بهالموضوع!.

...

وجوابي ببساطة لأني مش لاقية اللي يوجهني ويعلمني، أنا كبرت

وحيدة..

قاطعتها: مش مشكلة اللي فات يا مسك، المهم دلوقتي.

وأردفت: بصراحة يا مسك، أنا حابب إنك تلبسي الحجاب عن قناعة، وجدًّا حابب أشوفك فيه، لأني وقتها مش هسيبك أبدًا وهتجوزك يعني هتجوزك .

ابتسمنا وأكملنا تناول الأكل..

ودهشت كيف أنها تكابح في الحياة لوحدها ولم يرشدها أحد في طريق الحياة!.

لقد تعلّمت كل شيء من الآلام والخيبات، لكنّ ملامح وجهها الجذاب لن تخبرك كم خريفًا مرَّ على قلبها وهي ما زالت تزهر بجمالها المميز، فإذا أراد الحب أن يتجسد فستكون بلا شك هي سيدته.

وفي أثناء معركتنا مع الطعام سألتها أيضًا: مسك، إنتِ مريتِ في ظروف صعبة كتير، ومش أي حد يتحملها، ايه الموقف اللي حسيتي فيه إنك أكثر شجاعة؟

ـ سؤال حلو.

مممم...

الموقف الأكثر شجاعة بحياتي..

إني طلبت المساعدة.

ـ يعني ازاي؟

_ لجئت لمعالج نفسي، وهذا لا يعني أني مجنونة كما يعتقد بعضهم، في أشخاص بمجرد إنهم يسمعوا أحد يذهب لطبيب أو معالج نفسي، فإنهم يحكموا عليه أنه بلا عقل، لكن أنا استطعت تجاوز أمورٍ كثيرة من طلب المساعدة من معالج نفسي،

وأني لم أستسلم لأفكاري الانتحارية، فالشخص الضعيف هو الذي ينتحر، أمَّا الشخص الذي يحارب ويقاوم ولا يستسلم فهو شخص قوي، ولا عيب في الذهاب للعيادة النفسية، فعند أول موعد لي عند المعالج النفسي هنا أدركت أني أكثر شجاعة وقوة.

فقلت بفخر لحبيبتي وأنا اصفق لها: أنتِ تحفة يا مسك.

بعد دقائق..

عادت مسك من الحمام بعد أن فرغنا من مهمة العشاء وهي مستاءة جدًا وتبدو على ملامحها الانزعاج.

فقلت: مالك، في ايه؟ وجهك مخطوف كده ليه!.

وهي تمسك بيدها سنسال الألماس الهادئ مقطوعًا من الخَرم الأساسي قالت: اتقطع.

_ بس كده بسيطة، أصلحهولك حالًا.

أتممت إغلاق السنسلة وناولتها إياه.

فأنزلت رأسها في استكانة وقالت بحياء: أنا عايزة أروح البيت، ممكن؟

_ اتفضلي، أنتِ تؤمري.

السيارة التي استأجرتها مركونة على بعد عشرة أمتار من المطعم، اضطررت أن

أركض مهرولًا والمطر يرشق بي، قدتُ السيارة إلى مدخل الباب، أقبلت مسك بخفة لا يهمها هطول الماء على جسدها بغزارة، غرتُ من قطرات المطر التي تلامسها، فذهبت مسرعًا خلعت الجاكيت الجلدي عني ووضعته على رأسينا وأمسكت بيدها، وصلنا إلى السيارة ففتحت لها الباب مثل جنتل مان، وأوصلتها إلى بيتها، تحدثنا قليلًا في طريقنا، وأخبرتها أن لدي غدًا موعدًا عند معرض مشترك سيحضر فيه أربعين كاتبًا مشهورًا وأنا منهم، تمنت ليَ التوفيق والتيسير، كان نابعًا من كهف قلبها الطيّب.

قُلتُ لها: ما رأيك أن تأتي معي كمرافق؟

وضعت يدها على فمها بصدمة، وقالت بلهجتها التي أعشقها: بتحكي جد؟ فضحكت أقهقه، وجاوبتها بلهجتها نفسها: طبعًا، ها؟ شو رأيك؟

قالت: يشرفني جدًا، بالتأكيد موافقة.

ثم وصلنا إلى المنزل وذهبت، ضاق صدري بانتهاء لقائي مع حلوتي.

***

بعدما أرخى الليل ستائره السوداء خيّم السكون على مدينة باريس في تلك الساعة المتأخرة وقفت أنظر إلى الليل من نافذة الزجاج في غرفتي، حيث القمر مُحاطٌ بهالة باهتة في منتصف سماء دامسة يميزها أيضًا وميض بعض النجوم الشاهقة لحظة انقشاع الغيوم المحمّلة بالثلج لتفسح المجال

لصفاء الفضاء قليلًا، كنت قد فشلت في النوم من كثرة تفكيري بمسك، كان التفكير بها رحيب يسحبني إلى قعر خيالي المجنون يطوف بي ليشق طريق جديد والتفكير المستمر ببناء أسرة أخرى، هاتفتها بدون تفكير وجاءني الرد.

لم أتوقع أنها ما زالت مستيقظة.

سألت في لهفة: أميرتي!.

ماذا تفعلين بهذا الوقت!.

فأجابت: استسلمت للأرق.

ثم تنحنحت لتقول: مثلك تمامًا.

ـ إذًن هل تفكري بي مثلما أفكر بك؟

ثم أضفت وأنا ارنو إليها بسرعة دون أن أعطيها مجال لتعلّق:

يقول علماء النفس إن تفكيرك المستمر في شخص ما تكون بسبب أن الشخص الآخر يفكر بك أيضًا ويشغل حيزًا من تفكيره وهذا يعتمد على نظرية تخاطب الأرواح، هل تؤمنين بذلك؟

ـ أعتقد نعم، فأنا أصدق أقوال علماء النفس حتى وإن كانت غير مثبتة.

فقلت بسرور: معناها أنا شاغل دماغك صح كده؟

ازدردت ريقها بصعوبة وهي تحاول السيطرة على توترها ثم ابتسمت وهي تقول بوضوح وهدوء: بصراحة أيوة، أنا مش عارفة أشيلك من

تفكيري ابتدى معايا أكتر وقت ما كشفتلي حقيقة الزفت أحمد، حسيتك زي بطلي الخارق اللي عايز يحميني من أي شيء.

ـ يا روحي، وأنتِ كمان بطلة كل حكاياتي.

فصمتت ولم تعلّق ثم قالت: هحاول أنام.

ـ لي بس كده؟ خلينا نتكلم أكتر.

ـ لازم أنام لأنه بكرة معزومة على حضور حفل فيه أربعين كاتب مشهور الساعة الرابعة عصرًا.

فأكملت بصوت مبتسم متقطّع: بضيافة حد اسمه..

اسمه...

مممم..

افتكرت..

اسمه محمد...

محمد الرندلّي.

اتسعت ابتسامتي وأنا أقول: هو مين الشخص ده؟ ازاي هتروحي معاه من غير إذني!.

فارتفع صوتها بالضحك وقالت: تصبح على خير.

ـ وأنتِ من أهل قلبي.

فلاش باك (خطة كشف أحمد النذل).

مريم: أنت تسافر بكرة عادي ولا كأنك تعرف حاجة...

أنا هخليه يتكشف زي ما عمل اللعبة الوسخة بتاعتو مع رياض فظهرت علامات التحدي في وجه مريم وأردفت بلهجة جادّة: بس بطريقة هتخلي نهاية تتف بوجهه

لازم يدفع ثمن عمايلو البشعة ويحس شوية بالخسارة.

فاستوقفتها أسأل: متفهمينيش غلط، هو أنتِ عايزة تعملي كده عشان خاطر تنتقمي من أحمد والا علشان خاطر نهاية؟!.

بعد زفير ثقيل قالت: علشان ثلاث حاجات..

وهي تشير ثلاثة أصابع بيدها.

_ وهيَّ؟

_ واحد: علشان نفسي، حتى أقدر أسامح حالي على اللي عملتو بنهاية ورياض.

اتنين: علشان نهاية، فلو حصل بيوم ونهاية عرفت بالحقيقة تعرف إني كمان حاولت أكفر عن ذنبي وأساعدها تتخلص من أحقر شخصية في العالم.

ثلاثة: علشان أنتقم من أحمد، رديت عليه ورخصّت من نفسي وقابلني بحوار جارح ووسخ زيو.

_ امم، تمام، وبعدين؟

_ أنا هروح دلوقتي هنفضل على تواصل وبكلمك في الخطة عند كل

خطوة.

ـ بس أنا عندي فضول أعرف ايه اللي في دماغك!.

فابتسمت وهي تقول: كل شيء بالوقت الصح سيكون أجمل.

وخرجت.

أغلقت الباب ويشغلني أمر واحد، رسالة رياض.

هممت سريعًا بقراءتها وكانت كالتالي: أخي العزيز..

لا تزعج مني لأنني لم أخبرك بعلاقتي السابقة مع نهاية، احتفظت بها لأنني رأيت الحب يخرج من بؤبؤي عينيك، ورأيت أنه من غير الجيد أن أتكلم عن حبيبتك التي كانت حبيبتي يوم من الأيام، وخمَّنت أنه يمكن لن تصدقني بأني لم أخنها ومن الممكن أن تقول إني كاذب، لذلك فضلت أن تسمع الحقيقة من أبوابها، لكن لا يهمني ما أنا عليه الآن، مضى ورحل في الماضي سافرت لمكان لا يعلمه أحد لأجعلك مطمئنًا مع نهاية، ممكن أن تزل لسانك أو مريم في الحقائق يومًا وتشعر نهاية بالأسف اتجاهي، لذا قررت أن أبتعد لتعيشا بسكون حتى وإن ظهرت الحقيقة،

وأيضًا عندما كنت تراني كنت تعرف أني رياض فقط، الآن بعد ما عرفت كل شيء سوف تراني كرياض حبيب نهاية السابق، وأنا لا أريد أن تشعر بذلك، لا تحاول أن تتصل بي فلقد بدلّت نمرة هاتفي كتبت لك هذه الورقة لأساعدك قليلًا في علاقتك مع نهاية يشهد الله أن نهاية الآن أعتبرها أختًا لي في الإسلام، نعم، لم أنسَ الأشياء التي تحبها، لكنني لا أفكر بها كالسابق، تجاوزت ذلك الصراع، لذلك كن مطمئنًا، أساعدك

فقط من باب الأخوة.

أولًا: نهاية لا تريد شيئًا من هذه الدنيا سوى السعادة، لأنها عاشت تجارب صعبة منذ صغرها.

ثانيًا: تحب التفاصيل وتقدسها ولو كان شيئًا بسيطًا جدًا.

ثالثًا: في الأكل تفضل الأطباق التي تحوي الأرز وتعشق السلطات جميعها، ومن العصائر تحب عصير المانجا الطبيعي بشرط أن يكون خاليًا من السكر، أحيانًا تشرب عصير التفاح الطبيعي أيضًا.

في المشروبات الساخنة تعشق القهوة الفرنسية بالشكولاتة والشاي بنكهة النعناع قسم الحلويات القسم المفضل لديها تحب: الكرواسون، أوبرا كيك، حلوى الإكلير، الماكرون، كيكة السوفليه بالشكولاتة وجميع قسم الحلويات .

رابعًا: تعشق ورد الحوزان متعدد الألوان وورد كالا الأبيض.

خامسًا: في الألوان تحب ارتداء اللون الأسود والأخضر بجميع درجاته والموف.

سادسًا: تحب الجلوس على شاطئ البحر والسفر والرياضة وجلسات المقهى.

أتمنى أنني قدرت أفيدك بهذه المعلومات، أدعو لكما بالتوافق والهناء وأن تكون عوض نهاية في الحياة.

مع كامل إخلاصي أخوك رياض

أنجزت الرسالة وكررت قراءتها حفظًا، ثم حرقتها بإشعال نار فيها داخل حوض الجلي، شكرت رياض بقلبي على هذه المعلومات التي بالتأكيد سوف أستخدمها لصالحي في علاقتي بمسك.

***

اليوم التالي في القاهرة_ مصر يعلو صليل الهاتف المحمول في البيت باكرًا، كانت مريم، لم يرق لي هاتفها في مثل هذا الوقت، تجاهلت وقلت لنفسي متأففًا: في هذا الوقت يا مريم!.

عاد صوت الهاتف بالارتفاع بإلحاح متواصل، لكزتني زوجتي وهي نائمة بكوع يدها لأوقف الرنين، فقمت وأنا أفرك بعينيّ إلى المكتب بخطوات مترنحة من كسل النوم، وأغلقت الباب لكي لا تسمع زوجتي شيئًا، ما دامت مريم تصر على الاتصال، فمتأكد أن هناك أمرًا هامًا متعلقًا بمسك.

تجهش بالبكاء وهي تصرخ: محمد..

أحمد يا محمد!.

انحبست أنفاسي من هذه النبرة فقلت: ايه فيه ايه يا مريم!.

تواصل البكاء وتقول: أحمد عرف كل حاجة.

_ عرف ايه يا بنتي ما تقولي!.

_ عرف أننا هنعمل خطة نكشفه فيها لنهاية.

قلت مستنكرًا: عرف ازاي يعني!.

قالت وما زالت تنتحب بحدة: لما حاول يتحرش فيها..

مكنش قاصد يتحرش..

كان..

كان..

بيحاول يدس فشنطتي جهاز تنصت!.

وانفجرت ببكاء حسرة وكآبة.

وأضافت: وسمع كل حاجة اتكلمنا فيها، ودلوقتي أنا مش عارفة أتصرف ازاي.

سرحت بأفكاري برهة، واستردتُ أنفاسي بعد أن ظننت أن الهواء انقطع عني على صوت مريم وهي تقول: محمد، محمد، أنت رحت فين!.

_ هاا، معاكي، معاكي، سرحت بفكر بالإنسان الغريب ده!.

ايه الوساخة دي!.

واستطردتُ قائلًا: أنتِ عرفت ازاي؟ هو كلّمك؟

_ لاء مكلمنيش خالص، بس أنا لما روحت من عندك رميت الشنطة ونمت على قفايا مثل القتيلة، والصبح صحيت أوضب الشنطة بعد ما اتبعثر فيها كل حاجة فانتبهت لجهاز صغير لونه أسود شدّ انتباهي ولا عمري شفته.

_ طيب وايه بعدين؟

_ وبعدين سألت حد صاحبي من أصحابنا وحكالي إن ده ممكن جهاز

بيسجل الصوت، فرحت سألت عند محل متخصص بالإلكترونيات وأكدولي إنه ده جهاز تنصت وبيسجل كل حاجة وبيحفظها كمان.

ـ هايل، هايل، صاحي لكل حاجة الوسخ.

ـ هنعمل ايه دلوقتي بعد ما كشفنا.

قلت وأنا أقتضب حاجبي بانزعاج وغضب مكبوت: دلوقتي أنا اللي هعمل وأنتِ تنفذي اللي هقوله، تمام؟

ـ أنت بتفكر فإيه؟

ـ هقولك..

اعملي نفسك غشيمة، يعني ولا كإنك شوفتي الجهاز ده.

دبري لقاء أنتِ ونهاية وخدي معاكي الجهاز فالشنطة، وقولي لها إنك هتاخديها لمكان مهم إنه تشوف بنفسها حاجة خطيرة هتغير رأيها بأحمد، أحمد هيكون سامع كل حاجة والطبيعي إنه رح يتغيب عن الوساخة اللي بيعملها، هيفتكر إنه نجح بالخدعة، بس مش عارف إنه احنا كمان صاحيين..

وطبعًا أنتِ هتاخدي نهاية مكان البار اللي بيشتغل فيه النجس، وأحمد هيكون مراقب تحركاتكم ومبسوط إنه خطة مريم ومحمد فشلت، بس مش عارف إنه مش هيفلت من إيدي دورك بقى بعد كده إنك تبيني لنهاية إنك كنتِ غلطانة في الحكم على أحمد طبعًا والجهاز جنبك ويكون سامع بنفسه لحد ما آجي أنا السفرة الجاية، هيكون عندي شغل، وخلال الفترة دي بيكون أحمد متطمن إنه الخطة بتاعتنا فشلت وخلاص استسلمنا،

والمألوف إنه بعد ما آجي أنا لباريس هيكون راجع للشغل القذر، اديني العنوان وهاخد نهاية بنفسي تشوف الرذالة بتاعت أحمد، اللي ضحت بحياتها علشان تبعدني عنها، وبكده بتكون خطتنا احنا اللي انتصرت..

وبالفعل الخطة مشت على أحمد، ولّما سافرت باريس للشغل لحضور المعرض المشترك، أكدت لي مريم إنه أحمد راجع للبار منذ يومين، فرحت لبيت مسك من

غير موعد الساعة الحادية عشر ليلًا طرقت الباب بصمت، جاء صوت من الداخل: مين؟

أدارت المقبض وفتحت الباب، تسمرت عيناها برؤيتي، مضت بضع ثوانٍ ثقيلة يجتاحها عتاب صامت، فقلت لها: تعالي معايا حالًا، عايز أوريكِ حاجة مهمة.

هزت راسها بعلامة رفض وقالت بصوت حزين: يا ريت تبعد عني، أنا..

فقاطعتها: مش هسمحلك تخربي حياتك مع شخص نجس زي أحمد علشان بس تبعديني عنك، أنا مش هطلب منك تتقربي مني وتحبيني، أوعدك مش هتشوفي وجهي تاني، بس تعالي معايا أفرَّجك أحمد بيعمل ايه!.

قالت بصوت قلق: هو في ايه!.

أمسكت بيدها وأخرجتها قسرًا، أوقفت سائق تاكسي وذهبت لعنوان البار، عندما وصلنا هزت كتفيها في لا مبالاة وهي تقول في عتاب: أنت جرجرتني هنا علشان أوهامك زي مريم صاحبتي!.

بقيت صامتًا أمسك بيدها إلى أن وصلنا إلى باب البار، انحنيت لأقترب من مستوى أذنها، أهمس لها وأنا أشير بسبابتي نحو نادل الخمرة أحمد: هتتجوزي الوسخ ده!.

وأضفت: مش هحكيلك طبعًا على عدد الستات اللي نام معاهم جوا..

كنتِ هتدمري نفسك مع بني آدم رخيص زي ده علشان بس مش عايزاني أتقربلك.

صدقيني مش هخليكِ تسمعي فيا حتى، بس أرجوكِ متحمليش ذنب خراب حياتك بسببي، أوعدك مش هتشوفيني بعد اليوم مرة تانية.

واستطردت ذاهبًا لأتركها تعيد حسابات حياتها: فرصة سعيدة يا مسك، أنا حقيقي حبيت وجودك..

بعد ساعة...

أضع كفتيَّ أسفل مؤخرة رأسي لتستريح خلايا جسمي على السرير ممتدًا لا أفكر بشيء يعكر صفو خلوتي وسكينتي، صوت أقدام تعتلي الكعب بخطوات ثابتة آتٍ من بعيد لتتوقف عند طرق باب غرفتي بهدوء.

فقلت متعجبًا: مَن؟

فجاء ردًا بصوتها الحنون: هذه أنا، نهاية.

ماذا!.

نهاية!.

لم أصدق ما سمعت أذناي، فتحت الباب والدهشة والسرور تظهر

على هيئتي،

أذنت لها بالدخول، فقالت بحرج وخجل واضح على صفيحة وجهها الدافئ: أنا متأسفة، جئت بهذا الوقت غير المناسب

_ لا لا دا أنتِ تنوري المكان في أي وقت.

قالت بحياء: شكرًا.

_ تشربي إسبريسو؟

_ أشرب.

فأخذت تنظر في فحوى غرفتي ببلوراتها الزجاجية اللامعة بينما أقوم بتجهيز القهوة على الجهاز الكهربائي سريع التحضير.

تفضلي.

قدمت لها القهوة وجلست مقابلها.

ببراءة قالت: شكرًا.

_ على ايه؟

_ أنت شخص طيب أوي، مش أي حد يعمل اللي عملته معايا، شكرًا لأنك خليتني أشوف وجه أحمد التاني.

_ العفو، عملت دا من حبي فيكِ.

قاطعتني بأدب: يا ريت منفتحش سيرة الحب، أرجوك.

وأضافت: وأنا كمان حبيت وجودك، بس عايزاك صاحبي وصديقي،

بس كده مش صعبة.

ابتسمت وقلت: اللي تشوفيه يا مسك.

ارتشفت القهوة وأردفت بسخرية: مش هحكيلك عن تعابير وجه أحمد لما أعطيته

الكف اللي يتمناه.

_ بطلة، يستاهل.

_ هو كان فاكر إن مريم جابتني لعنده مش عارفة ليه، فقمت اتصلت بيها وحكت لي على كل حاجة عملتوها مع بعض علشان تكشفولي أحمد.

أكملت بتهذيب بالغ: أنت شخص حقيقي بجد، وشكرًا كتير ومتأكدة إنه الشكر لا يكفي.

هقوم أروح، شكرًا عالقهوة.

_ براحتك، نورتيني يا مسك.

_ تصبح على خير.

_ وأنت من أهله.

***

بعد معرض مشترك حضر فيه أربعون كاتبًا مشهورًا وأنا منهم، جالس في غرفتي أفكر بسعادة مسك الغامرة حين حضرت معي شخصيًا وإلى جانبي كطفلتي المدللة، الساعة الآن السادسة مساءً والطقس باريسي بامتياز، يملأ صدري الرضا عن نفسي أول مرة بخذلش فيها مسك

والحمد لله وعدي اتنفذ، كنت خايف يحصل حاجة ومتزبطش مرافقة مسك ليا، بس عدت على الخير الحمد لله.

جلست أقلِّب الهاتف فوجدت مسك قد نشرت للتو فيديو لها تغني فيه مع الأغنية وخلقتها الجميلة تلوح بمسرَّة واضحة.

بعثت لها: كنت مفتقد الفيديوهات الجميلة دي.

وأضفت: منور الوجه الحلو يا روحي.

قابلتني بالرد وقالت: ثانكس..

وأضافت القلب الأبيض.

استطردت الحديث ليطول أكثر فقلت لها: بتعملي ايه؟

_ بحضر نفسي علشان أروح الجيم، عندي حصة مسائية اليوم.

_ أووه، حلو أوي، مع إنه ما شاء الله مش مِحتاجة جيم جسمك رهيب يا مسك.

_ أنا مبروحش الجيم علشان أنحت جسمي وبس، الرياضة ليها فوائد كتيرة كمان والتزمت فيها لأنها نصيحة من معالجي النفسي لأثر الرياضة على صحتنا النفسية قبل الجسدية.

_ جميل، بالتوفيق يا رب.

_ شكرًا.

_ ايه رأيك أوصلك أنا؟

_ لا متغلبش نفسك أنا رايحة مع الشلة.

ـ اممم، حاضر، خدي راحتك.

ـ سلام.

ـ سلام.

وضعت الهاتف جانبًا وقمت أتخبط بغرفتي ذهابًا وإيابًا يجتاحني الملل، لا يمكنني الهروب إلى النوم باكرًا هكذا، ففكرت أن أتناول العشاء في أحد مطاعم باريس، لكن قبل ذلك جال في خاطري أن أطمئن على أطفالي، فزوجتي لا يهمها أن تتصل بي تطمئن عليّ أو تسأل عن أحوالي، لا يهمها إلا نفسها، الأمر الذي جعلني أنجذب لأنثى غيرها، لا أستحق اللوم في هذا الموضوع فنحن لا يوجد تواصل روحي بيننا حياة بلا حب تساوي حياة بلا توافق وقليل نادر التواصل، حاولت كثيرًا أن أتحدث معها للتقليل من التقاعس والإهمال الذي تمنحني إياه، لكن، عبثًا نصحتها كثيرًا وبيَّنت لها أنني قادر على الزواج بأخرى، فحالتي المادية ممتازة، والمعجبات كثيرات، لكنها لم تحرك فيها شيئًا، وتقابلني في عدم اكتراث بهذا الشأن، فلم أتمكن من زعزعت طباعها المستهترة، لا يهمني الآن إن علمت بشغولية قلبي مع مسك، وسيأتي يوم وأصارحها أنا على الزواج بغيرها.

اتصلت بها وكالعادة أضع قناعًا جديدًا على وجهي لأمثل السعادة بسماع صوتها، اطمأننت على حمزة وعمر الحمد لله كانوا بخير.

ارتديت ملابس دافئة وسترة جلدية فوقها، جلبت محفظتي ونزلت إلى شوارع باريس الباردة حيث الماء يبلل حجارة الطريق المفروشة على الأرض، ويترجل من الأقواس المعمارية جليدًا إبريًا، سرت قشعريرة

برد في جسمي، تناولت العشاء سريعًا وعدت إلى غرفتي جهزت شنطة السفر لغد حيث الإعلان عن إصدار روايتي الجديدة وحفلات التوقيع في القاهرة، أخذت دشًّا ساخنًا، اكتسيت البيجامة، صليت العشاء وقرأت قليلًا من القرآن، ثم ارتميت على السرير وسرحت في نومٍ عميق..

اليوم التالي، وأنا في المطار، وفي أثناء دخولي قاعة المغادرون رأيت شيئًا صادمًا!.

كأنني تلقيت الصفعة المؤلمة التي من شأنها أن تلهب وجهي ويرن أثرها في أذني، بل وألمها النفسي أشد وقعًا على كاهلي، صدمت كثيرًا بما رأيته بعينيَّ التي لا تكذب البتة، رحت أفرك جفوني لأتأكد من أنَّ المَشهد الذي أراه أمامي واقعي أم لا، أيعقل؟ مريم وأحمد!.

أيعقل أن مريم تعود لغدر نهاية مرة أخرى؟

أم أن أحمد يتوعد لها ويهددها؟ أم يوهمها مرة أخرى؟

لن أستطيع أن أحدد إجابة لسؤالي، ولكن أتمنى ألا تكرر أخطاءها.

اتصلت بها وأنا ما زلت أبصر مريم وأحمد يتحدثان، سألتها: مريم، أنتِ فين؟

قالت: أنا في المسرح، ليه؟

فقلت متوترًا وبكلام متقطع عند عدم تحمّلي سماع كذبتها: لا..

لا..

مفيش حاجة، اتصلت بنهاية كنت عايز أقولها إني في المطار ومسافر

وخطها مشغول، قلت يمكن جنبك والا حاجة!.

اعتلى الصوت في أرجاء المطار: الرجاء من المسافرين المغادرين إلى الرحلة القادمة على متن.

الطائرة رقم f١١٠٧٩٥ التجهز حالاَ..

فقلت لها: هو أنت بالمطار؟

ـ لا، مطار ايه بس، يمكن صدى الصوت بان عندك علشان فاتحة السبيكر.

ـ اه، عندك حق، طب سلام يا مريم، هروح رحلتي.

ـ مع السلامة.

أقلعت طائرتي إلى القاهرة وما زال تفكيري يشغلني بشأن لقاء مريم بأحمد بعد كل ما فعله!.

بعد سفري بثلاثة أيام..

أتحدث مع مسك عبر الهاتف منتصف الليل بتوقيت باريس، فقالت لي: محمد ممكن تكلمني عن عيلتك؟

ـ يا قلب محمد، تعرفي؟ أنا إجابتي دايماً إني مبتكلمش، وإن الموضوع ده برا أسوار البيت خط أحمر، بعيدًا عن الجمهور والصحافة، ولأن تفاصيلي بتنزل كتير في الأخبار وأنا مركز إنها تبقى أخباري فقط بخصوص شغلي.

ـ صحيح، معاك حق.

ـ لكن معك أنتِ سأحاول، عايزة تعرفي ايه؟ ـ زوجتك.

_ مالها؟

_ احكي لي عنها، وماذا وجدت لدي زيادة عنها!.

ولماذا أحببتني ولديك زوجة!.

وفي هذا السؤال أخذتني سلسة من الذكريات التي انصبَّت على ذهني انثيالًا يصهر قلبي ألمًا وحرقة، فقلت: ببساطة!.

قلبي لم يدق لها، تزوجت برغبة أمي فيها، كما تعلمين نحن شرقيون، اختارتها أمي بناءً على مؤهلات الزوجة الصالحة الولودة

وأنها فتاة مثالية للزواج، لكن اتضح لي أنها باردة من المشاعر والاهتمام ولم أشعر بقلبها يومًا، لا أعلم شخصًا لا يهتم بالمشاعر بقدرها، معك أنت عشت الحب وتحركت مشاعري وأحاسيسي المبلّدة منذ زمن بعيد.

فقالت بخنوع: أنا آسفة لذلك.

لألطف المشاعر الحزينة قليلًا قلت: بفضلك عرفت أن لدي قلبًا يعمل عملًا آخر غير النبض، لذلك ساعديني أن أذوب فيك، دعيني أقترب أكثر..

_ ألديك أحزان أخرى؟

_ يوه، كتير.

_ أسمعك..

فتراقص سؤال في ذهني فقلت لها: أنتِ بتحبيني؟

فقالت بمكر تناورني عن الإجابة: ممكن أعرف أحزانك عايزة أعرفك

أكتر؟

فقلت مماذقًا بذكاء أكبر منها: حكيت..

فلتحكِ..

رواغتني بسؤال: اليوم حفل انطلاق روايتك الجديدة؟

ـ نعم، صحيح.

ـ بالتوفيق يا رب.

ـ شكرًا ليكِ.

ـ اسمها ايه روايتك؟

بسرعة قلت: أسميتها مسك.

ـ بتمزح!.

ـ، دي هتكون روايتي الجاية.

فكررت سؤالها وهي لا تعلم أني أقصد ما قلت وأن انطلاقة روايتي التالية ستكون باسمها "أسميتها مسك" فقالت: طب اسمها ايه فعلًا؟

ـ هتعرفي اليوم كمان شوية.

فقالت بصوت خفيف ينم عن عتاب: مش هتخصني باسمها عن الجمهور؟؟

فقلت سريعًا لأثبت صدق مشاعري لها: اسمها "سبعون يومًا من الغموض".

_ الله، من اسمها باين إنها تحفة، من نجاح لنجاح يا رب.

_ اللهم آمين، شكرًا.

_ يلا باي، أنا لازم أسكّر.

_ حاضر، مع السلامة يا روحي.

***

بعد أربعة أيام

استمرت أعمالي بحفلات التوقيع بعد انطلاق روايتي لهذا اليوم الذي فوجئت به بحضور مسك بين جمهوري، تحمل كلماتي على شكل كتاب بين يديها بسعادة وتنتظر بين الصفوف لتحصل على توقيعي، وهي لا تعلم أنها لو طلبت توقيعي لحصلت على قلبي محفورًا باسمها، غمرتني السعادة برؤيتها بهذه المفاجأة النقية، بما أنها تقاسمني سعادتي فهي تحبني، لا أستطيع وصف كم سعادتي باللفتة الجميلة مِن مِسكي، أوقع للجمهور تارة وأختطفُ نظرة لها تارة أخرى وأنا أبتسم لها، هزت كياني ووترتني بسرور، وعندما جاء دورها تقدمت بحماسة والتقطت معي صورة الكاتب والمعجب فكتبت لها توقيعًا مميزًا على الصفحة الأولى لروايتي مخصص لمسك: مئة عام مع مِسك أفضل بكثير مِن سبعين يومًا من الغموض، مستنيكي اليوم عالكرنيش الساعة التاسعة مساءً.

ثم نظرت إليها وتابعتُ الكتابة وأنا أغمز لها: بحبك، من صديق روحك محمد.

ناولتها إياه وهي تستنشق السعادة الواضحة على معالمها، لوحت

لي يدها مودعة وقابلتها كذلك، رحلت وأنا أتنسم الهواء المختلط بشذا مسكي منتشيًا بسعادة قدومها كسعادة عازف العود البارز بعد تصفيق أم كلثوم إعجابًا بأدائه..

في المساء الساعة التاسعة..

أقف أنا ومسك خلف السور الفاصل بين الكورنيش ونهر النيل برزانة واطمئنان تحوينا نشوة نسمات البحر الباردة ونشرب القهوة الساخنة على أنغام صوت تموجات النيل وسكناته التي تداعب القلب..

بدأتُ الحديث: تعرفي؟

_ ها؟

_ دايمًا بيقولوا إنه البحر باعث للحياة والهدوء وهو أساس الروايات والحكايات.

_ أكيد، سمعت عن كثير من الشعراء والكاتبين كان مصدر إلهامهم وتركيزهم هو الكتابة عالشط، وأنا شخصيًا المية بتحسن نفسيتي كتير، فأخذت تملأ رئتيها بشهيق طويل وهي تغمض عينيها بانشراح وشعرها يتطاير مع نسمات الريح الوافدة من النيل.

فقلت ونظري مركز عليها: بس أنا مصدر إلهامي مش البحر!.

وجهت بصرها نحوي وهي تقول: عارفاك كاتب شاطر ما شاء الله عليك، بتلعب بالكلمات والحروف لعب وبتعمل حوارات وتفاصيل وبتحبكها بطريقة جمي..

فقاطعتها: أنتِ مصدر إلهامي..

احمرّت خجلة فصمتت ولم تعلق فعيونها كانت كفيلة أن تهمس بما في خاطرها من مشاعر تجاهي، أشاحت نظرها نحو النيل وأنزلت نظرها بحياء للأسفل.

ثم قالت لي: عندي ليك خبر حلو.

بحماسة قلت: إيه!.

أجابت بسعادة: أنا ناوية أتحجب.

_ الله، أنا سعيد جدًّا بقرارك..

وفي غمرة هذه اللحظة قلت لها: مسك، ماذا لو أحبك كاتب وكنتِ قلمه!.

فقالت مبتسمة وهي تهز رأسها في حماسة بعد ما أقبل صمت قصير: ماذا لو أحبتك نهاية وكانت مسكًا!.

لم أعرف ماذا أتصرف وقتها، كان في خاطري أن أصهرها في حضني، لكن خفت من ردة فعل عاكسة لحماستي المفرطة، لذلك فضلّت أن أقبل جبينها وأطبع قبلة على يدها وقلت بعدها: منذ هذه اللحظة أنا قبطانك الذي سيبحر في قلبك، فكل رجل محب قبطان يسبح في أعماق روح شريكه.

فقالت مداعبة: أنا بردت أوي يا قبطان، ممكن تركن على جنب ونقعد في حتة دافية..

فأجبت مغازلًا: لأجلك يا فتاتي أحرق لك جميع كلامي وحروفي لتشعري بالدفء.

ابتسمت بخجل واكتفت بذلك.

فقلت: إذن، تعالي نقعد في الكافيه اللي هناك..

وما أن التفتنا للخلف حتى ثقلت أرجلي..

وتبلّدت مشاعري وتسارعت الأفكار المتطايرة في رأسي..

وجن الليل بدون بدره ليعلن بذلك وصول محاقه الحالك، الكثير من الأشياء حولي بائسة الآن، بدأت حياتي تأخذ اللون الأدهم ستارًا لها، بدأت نهايتي مع آخر حرف لي في هذا اللقاء الأخير، وبالرغم أنني أعرف النهاية أكملت..

لأنني أحببت الطريق إلى مسك..

يا الله!.

ما أجمل النيل والنور الذي ينبعث من طرقاته حين يتمشى عليه العشاق وما أشد ظلمته حين تنكسر أحلامهم على شاطئه، لم تبدأ حكايتنا بعد!.

أتنتهي هكذا!.

وهنا!.

المكان الذي حفرت فيه الذكرى الأولى الجميلة الحزينة!.

أشعر بأني سمكة هنا خرجت من مياهها للتو، تقاتل وتنتفض لتعيش، ولكن، ما الجدوى الآن بعدما خرجت من بحرها!.

لا يوجد لها تفسير آخر غير الموت، وكذلك أنا.

لم تستوعب مسك المشهد الذي أمامها ما جعلها ترمش بعينيها عدة مرات لتصدق ما تراه.

همستُ في أذنها: أنتِ حكيتِ لمريم إنك هنا؟

همست لي أيضًا وهي ما زالت مندهشة: أيوه، ليه!.

كان أحمد ومعه زوجتي وهي تبكي، كفكفت دموعها ثم قالت زوجتي بصوت مرتجف: طلقني يا خاين!.

أحمد يبتسم في وجهي ويرفع حاجبه بخباثة، ثم التفتت زوجتي نحو مسك وقالت لها بازدراء: أنا مش عارفة بنات الناس الرخاص زيك بتمشي عادي كده مع راجل متجوز وعنده أطفال.

لمحت لمعة شروق دموع في عيني مسك، تابعت زوجتي وهي تقول: خليه إلك..

اشبعي فيه...

أنا هسبهولك أهو...

اتبسطي فيه..

كيف ليكي قلب تتبسطي أساسًا وإنتِ خاربة حياة أسرة كانت كاملة..

يا..

يا..

حتى أضخم الألفاظ قليلة على وحدة زيك..

ورحلت..

تاركة سلاسل مِن الحروف تنهار فوق رأس مِسك كانهيار جدار داعم تصدّع وخسف بسرعة وفجأة.

انهارت مسك تجهش ببكاء أسْأمها الكلام الذي تلقَّته كالصاعقة وأخذت تركض بعيدًا لحقت بمسك وأنا أصيح: نهاية..

نهاية..

استني..

أنا آسف..

بس شوية..

يا مسك..

أمسكت بها بقوة لأثبتها تقف عن الركض، صارت تشهق بالبكاء وهي تقول: ابعد عني، خلاص اتركني..

ثم ردعتني بقوة والتفتت إلي لتقول: أيوه المخلوقة مكذبتش!.

مستغربة ليه يعني إنها حكمت عليَّ هيك.

وتابعت وهي ترفع كتفيها في عدم اكتراث: مهو أنا فعلًا كده طالما وافقت أن أدخل السكة دي..

زوجة وأطفال.

فقلت برجاء: مسك، احنا..

فقاطعتني تبكي بطريقة أوجعت قلبي وهي ترفع حاجبيها بحزن تقول: مفيش حاجة اسمها احنا..

أنا وأنتا مينفعش يا محمد، خلاص..

مينفعش..

مينفعش.

رفعت سبابتها تحذرني وأردفت: اوعى تلحقني يا محمد، والله لأصرخ وسط كل الناس دي إنك متحرش، اوعى تلحقني، سيبني خلاص، أنا مش عايزة أعرفك تاني ورحلت وهي تبكي وتبكي ولا تستطيع أن تفعل أي شيء إلا أن تبكي بحرقة، تركتها فعلًا كما طلبت مني.

وقفت عاجزًا لم أحرك ساكنًا وسط هجوم مشاعر الندم والوحدة والضياع، كأنما حلّت بي انتفاضة شديدة..

ثم عدت إلى حيث كنت..

استدرتُ نحو أحمد وأصبحت مقابله، رحت أصفق له بكفَّي بقهر وقلت له: هايل، أنت تستاهل الأوسكار على ده.

فقال بإهانة وهو يرفع حاجبيه بحركة سريعة: معملتش غير واجبي..

وأضاف: والا أنت كنت بتحلم تكمل حياتك عادي ولا كأنك خربت عليّ علاقتي مع نهاية!.

_ حقك، وأنا عاذرك، بتعرف ليه؟

_ ليه؟

فقلت وأنا أنقر على صدره بسبابتي: لأنك مريض..

وليس على المريض حرج وغادرت..

وصلت إلى منزلي، وجدت زوجتي تجهز شنطتها وشنطة العيال، دار بيني وبينها نقاش حاد لا أريد أن أسطِّره هنا، وبالأخير لم أستطيع أن أقنعها أن تبقى وتغير رأيها بقرار الطلاق، فرحلت وأخذت معها أولادنا، بقيت وحيد.

وضعت على هاتفي رقم مريم وفتحت تسجيل المكالمات واتصلت بها، لم تشأ ترد في المكالمة الأولى، فرددت كررت الاتصال، وأيضًا لم تجب، وأخذت عهدًا على نفسي أن أبقى أكرر الاتصال إلى أن تجيب أو تنفد البطارية، فألححت مرة ثالثة، رابعة، وخامسة، وسادسة، وفي السابعة أجابت من غير مرحبًا ولا سلام قالت: خير، أنتا عايز مني ايه؟

قلت لها وأنا أبتلع غصة: مبروك.

ـ على ايه؟

ـ على نجاح خطتك أنت وأحمد.

ـ اااه، الله يبارك فيك.

ـ هو سؤال واحد بس، ليه عملتِ كده؟

ـ لأن مش كل حاجة جميلة لنهاية وبس!.

فقلت بعتاب: طب ما هي صحبتك وأنت كده خنتيها!.

وبتحسديها!.

وبتتمنيلها الشر وزوال الخير والأشياء الجميلة!.

_ ما إلك دخل أنت..

قاطعتها بصوت حادّ يوشي بعصبيتي: أكيد تعرفي نهاية إنها مرت بظروف صعبة جدًا، وإنها تستاهل كل حاجة جميلة تعوضها عن اللي عاشته.

وأردفت بمكر حتى يتم تسجيل كلامها وأسمعه لمسك وتكتشف خيانة مريم

لها: يعني ما اكتفيتِ إنك خربتِ علاقة مسك مع رياض؟ ورخَّصتِ نفسك وحاولتِ تغري رياض ولفقتِ أنت وأحمد فيديو مفبرك ليه وحرمتوا نهاية ورياض من بعض، ورجعتي تتعاملي مع أحمد!.

وخربتي حبنا بعد ما أهانك وشتمك وذلّك!.

وأنت عارفة إنه أحمد راجل وسخ، بس طلعتي أنتِ أوسخ منه.

_ خلاص يا محمد أنا حكيتلك عن اللي حصل مش علشان تذلني فيه أنت كمان.

_ لأنك تستاهلي، استفدتِ ايه؟ بالأول خربتي علاقة مسك مع رياض ودلوقتي خربتي علاقتي معها، استفدتِ ايه غير إنك غدرتِ فيها، وأنتِ شخص خاين لنفسه قبل ما يكون خاين لغيره.

قهقت بحقد تقول:هه استفدت ايه؟!.

أنا كل شخص أعجب فيه وأحبه كان يروح يحب نهاية ويعجب فيها،

وأنا أطلع بولا حاجة، حتى رياض، رياض حبيته وأعجبت فيه بس هو محبنيش أنا وحب نهاية، وتيجي أنت كمان تحبها..

لا وتتجوزها كمان..

شفت ازاي كده أنا استفدت إيه، أنا استفدت كتير، أولها نهاية تحس شوية بالإحساس اللي بحسه..

فقاطعتها: مريم..

مريم...

اسمعيني..

أنتِ..

أنتِ شوفي دكتور يعالجك من الإحساس ده، هذا الأمر لا يمكن السكوت عنه، وليس من الطبيعي أن تكوني بهذا الحال..

فأغلقت الخط في وجهي..

جلستُ شارد الذهن لأكثر من نصف ساعة أضع يدي على خدي وبصري موجّه نحو سيراميك الأرض، في هذا الأثناء عدت لسماع الحوار الذي يدور بين قلبي وعقلي حيث القلب يجلس باستسلام مطأطئًا رأسه بحزن شديد مثل طائر المالك الحزين، وبدأ العقل الحديث يقول معاتبًا: أنا كنت عارف إنه هيحصل بينا كده، قولتك..

قولتك مية مرة سيبك من المشاعر الهبلة بتاعتك..

مردتش..

فاكرني بهزر يا حيلتها!.

القلب:.....

_ وشوف نفسك عامل ازاي دلوقتي!.

أنت خسرت كل حاجة!.

عجبك كده؟

_ .....

_ يلا اتبسط، اتخرب بيت الراجل، وأضاف بلهجة ساخرة وتعابير وجه هازئة: علشان شوية أحاسيس.

_ .....

_ أستغفر الله بس..

نطق القلب وأخيرًا بخنوع: وفيها إيه نجرب وحدة تانية؟

قال العقل بعدما تظاهر بانقطاع النفس لثواني بسيطة: ايه ايه..

وح..

وح...

وحدة تانية ايه يا حمااار..

أنت اتجننت!.!.

فصرخ بعصبية يقول: أنت عليك تضخ دم وباااااس..

فاهم يا عبيط!.

ـ ....

فرمقه العقل بنظرة اشمئزاز وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله.

حملتُ هاتفي وأرسلت تسجيل المكالمة إلى مسك، وكتبت لها: اسمعي هذا الصوت، هناك ما لا تعرفينه..

خرجت من المحادثة وما زلت أمسك الهاتف، لا أعلم ما الذي أوحى إليّ أن أجرب الضغط على زر الاتصال برقم رياض، وإذ به يجيب!.

ـ ألو.

ـ ألو.

ـ أخوي محمد؟ شو في بهالوقت؟!.

كيفك؟ أنت منيح!.؟

فقلت بخضوع: مش منيح يا رياض.

ـ شو في أخوي!.

ران صمت ثقيل ثم قلت: نهاية يا رياض..

نهاية سابتني.

ـ ليه، هو حصل ايه!.؟

فقصصت عليه الذي حصل، تأثر كثيرًا وأخذ يواسيني ويخفف ثقل الشعور عني..

فقلت: المهم أنت فين دلوقتي؟ بتعمل ايه؟

فقال بلهجته السوريّة: أنا بمطرحي ليه!.

فقلت بتعجُّب: مكانك ازاي يعني، أنت مسافرتش!.

أجاب باستغراب: أسافر؟ أسافر فين وليه؟!.

فقلت باستفهام: صحيح!.

أنتَ مش قلت غيَّرت نمرة تلفونك؟

فقال باستفهام أكبر: أنا؟!.

ـ أيوه، أنتَ حكتلي بالمكتوب اللي بعتهولي مع مريم إنك مسافر لمكان محدش يعرفوا وإنك غيرت نمرتك وو..

و..

ـ أنا مش فاهم ولا اشي يا حبيب، سفر شو!.

ونمرة شو!.

ومكتوب شو؟ ومريم..

مريم مين!.

فقلت بصوت خافت وكأنه جاءتني لحظة إدراك: مريم صاحبة نهاية!.

ـ مريم، اه، مريم، صرلي سنتين ويمكن أكتر ما شفتها!.

ـ والمكتوب اللي بعته؟؟!.

ـ أي مكتوب، أنا ما بعتلك شي أخي.

فعدلت جلستي وقلت: وصلني مكتوب باسمك تقول لي فيه الكثير

من الأشياء عن مسك أقصد نهاية، وأنك غيرت نمرة هاتفك وسافرت لمكان لا يعلمه أحد!.

ـ يمكن في غلط بالموضوع..

أنا ما أرسلت لك شيء ولا غيرت نمرتي، بس مرة وأنا في الاستراحة من عملي بعد لقائنا الأخير في المقهى تركت هاتفي في السيارة وعند عودتي فوجئت بأنه مسروق!.

وبعد فترة قصيرة نسخت رقم هاتفي على شريحة أخرى واشتريت هاتف جديد، أيعقل يوجد علاقة بهذا الأمر؟!.

فقلت وقد ربطت الأحداث ببعضها: معناها مريم استغفلتني!.

ومن الأول ماشية بخطة مع أحمد والاثنين بيلعبوا على بعض وعليّا!.

ـ شو في يا أخي؟ خوفتني!.

فعدت سردت الحكاية من لحظة افتراقنا أنا ورياض في المقهى إلى جلستي تلك التي كنت أجلسها وأنا شارد الذهن وبصري موجَّه نحو سراميك الأرض، وتبيّن لنا أن كل ما حدث هو لعبة من أحمد ومريم وما زال أحمد يخدع مريم وتصدقه!.

متعجّب أنا من بعض أطباع البشر.

***

بعد شهر ونصف كانت ترتدي فستانًا أسود ساترًا مطرزًا باللون الأحمر وعلى يديها وشاح طويل يصل الأرض، تضع على جبهتها سلسالًا

بلون ذهبي يدور حول رأسها من فوق حجابها الذي زادها نورًا، أصبحت كاللؤلؤة الطبيعية نادرة وسط عدد كبير من اللآلئ الاصطناعية حينما زادت عفتها بحجابها ولباسها التقيّ، أهداها الله إلى الحجاب وها هي تفتن به وهي تعتلي خشبة المسرح بثقة عالية وصمود على ملامحها الآسرة كفلسطين هي، قوية رغم ثقل الخيبات والأحزان، عنيدة مثل غصن أشجار بلادها الزيتون، متينة مثل تلك الرسومات التي خُطّت على جدران المنازل الخارجية العتيقة، صُلبة كقبة الصخرة المشرفة تأبى الهدم، ناعمة مثل حمامة السلام البيضاء، صامدة مثل رجلٍ فلسطيني رفض أن يتخلى عن مفتاح العودة، مثل غزة بلدها هي جبّارةٌ وبداخلها الكثير من الحروب والدمار، شجاعة مثل جنين ومخيمها الصامد رغم محاولات الاحتلال النيل منه، مثل رفح وخانيونس وطولكرم ونابلس وحيفا وجميع بلاد فلسطين المترابطة الصلبة، كعودة الطيور المهاجرة إلى ديارها، والعصافير إلى وكناتها، وصوت تغريد البلابل، وزقزقة الطيور وأسراب الفراش، كزهرة تزين الأشجار تجعلها تبدو كعروس تتزين بالتاج الألماس، كمثل نبات أنبت خضاره في صحراء قاحلة جرداء وهي بلباسها الشرعي.

الميكروفون أمامها وهي تغني:

عالمايا عالمايا عالعين يا ملّايا

يا بنية بالله اسقيني عطشان اسقيني مايا

يا ويل ويلي عيونها عيون المهى يا عيونها
يا ويل ويلي عيونها عيون المهى يا عيونها
وإن ذبلتلي جفونها تدغدغلي الحنايا

عالمايا عالمايا عالعين يا ملّايا
يا بنية بالله اسقيني عطشان اسقيني مايا

يا ويل ويلي طولها رمح الرديني طولها
يا ويل ويلي طولها رمح الرديني طولها
واللي يحاول يطولها لذوقه المنايا

عالمايا عالمايا عالعين يا ملّايا
يا بنية بالله اسقيني عطشان اسقيني مايا

يا ويل ويلي منها هالشاغلتني بسرها
يا ويل ويلي منها هالشاغلتني بسرها
والله لاتبع أثرها مهما تكون النهاية

عالمايا عالمايا عالعين يا ملّايا

يا بنية بالله اسقيني عطشان اسقيني مايا

لم يكتب الله لي أن أتعرف على موهبتها وصوتها الجميل في الغناء..

بعد أسبوع من حضوري المسرح، كنت قد حضرت إلى مسرح شموخ بلا دعوة اختلست الدخول وجلست في المقعد الأخير حيث لا يراني أحد، أصبح رياض مديرًا له حيث عاد كل شيء لترتيبه المناسب وعلمت مؤخرًا أن نهاية ورياض عادوا إلى علاقتهم السابقة، وقرروا الزواج أيضًا، كانت مسك قد طردت مريم من حياتها واقتنعت بالحجاب، ولبست اللباس الشرعي وهذا أجمل ما حصلت عليه في حياتها، وأحمد حصل على مبتغاه من الانتقام مني ورحل أيضًا من المسرح، وفشلت كل محاولات كبار العائلة أن تقنع زوجتي بالعودة وأصرّت على الطلاق فطلقتها بعد الكثير من محاولات الترجي والأسف.

بعد أسبوع من طلاقنا اتصل أخو زوجتي..

عفوًا أخو طليقتي..

يقول لي إن حمزة تعب وتشنج مرة أخرى وأنهم بالمستشفى، ذهبت ألحق بهم إلى المستشفى كان طفلي نائمًا كالملاك على سرير المريض وقفت أبصره عبر زجاج العناية المكثفة، سالت العبرات الصامتة على وجنتي، لا أعلم أهو عقاب الله لي على ما فعلته بعائلتي أم ابتلاء أصبر عليه!.

تمتمت بسري: الحمد لله على كل اللي أنا فيه، يا رب لا تعاقبني بطفلي

على ذنب اقترفته، أستغفرك وأتوب إليك يا رب سامحني.

جاءت أم حمزة ووجدتني أمسح دموعي وأنا كئيب منطلق اللحية بعد الحال الذي وصلت إليه، عزمت على الرحيل عندما رأتني فاستوقفتها: استني.

ـ في ايه!.

ـ مفيش بس عايز أقولك إن أنا آسف.

فضحكت بسخرية وقالت بتهكم: آسف ..

ودي تنفع بإيه دلوقتي!.

ـ يمكن متنفعش بس عايزك تسامحيني.

هزت كتفيها في لامبالاة وقالت: مقدرش.

فقلت باستكانة: أرجوكِ، شوفي حالتي عاملة ازاي!.

ـ مش ذنبي!.

حالتك دي أنت اخترتها.

وعادت إلى الوراء لتكمل طريقها بحزن أضافت بخيبة: يا ريتك فكرت بنهاية طريقك كما تفكر بنهاية رواياتك.

***

وها أنا أعود أكتب وأنا أتنهد حزنًا وشوقًا وندمًا يوم لا ينفع الندم، اقتنعت أخيرًا أنه عندما تكون وحيدًا ولا يمكنك أن تثق بأحد للبوح بآلامك، تصبح كاتبًا محترفًا تبدع بكتابة السعادة الأسطورية فتعيشها في

خيالك وبين أسطر تريدها، أو تكتب حروفًا موجعة حدثت في حياتك وتمثلها على أنها رواية، وتكون أكثر حكمة بانتقاء عبارات رائعة.

أنا الكاتب محمد الرندلّي، كنت قد أصبحت كاتبًا بفطرتي وتنمية موهبتي عن طريق القراءة المستمرة، لكن الآن وبعد الذي حدث، أجزم أنني سأخترع نصوصًا بارعة وكلامًا لم أحلم أن أخطه من قبل، فأصقل من مفارقتي لمسك حكايةً رومنسية لم يعهدها كاتب قط، فأعيش سعادتي بين حروفي وكلماتي، وأقتص كل لحظة حزينة فيها وأحولها لحبكة خيالية جدلية تلاطف روح العاشق لتسافر بها عبر أطياف الحب الشرس كما تتأرجح أوراق الخريف على خيوط أشعة الشمس الذهبية، ومن تهدُّم وانهيار أسرتي حكايةً خرافية لم تعهدها الأساطير مِن قَبل، لكن!.

في قعر اللحظة الأخيرة وعند النهاية الساحرة التي حدثت لي وفي اللحظة التي يتلاشى الوهم وتتجلى فيها الحقيقة، أسبح في الفراغ تحت زخات المطر المسترخية، تناثرت أمامي الذكريات فوق الرصيف، أفلت الفراشات هاربة، هبطت ستائر الليل الحالكة، وتثائب الليل الدامس بعد ما لاذ النهار المشرق مدبرًا، واستعدت لآلئ السماء بالتوهّج، انطفأت نسائم الريح الدافئة، وذبلت وردة حالمة، وانكمشت الأماني المبعثرة، ورحل الجميع محلّقًا بعيدًا تاركين وراءهم شخصًا يبحث عن رحلة تعيده إلى أحضان الذكريات اللامنسية المخلفة وراءها سطورًا فارغة، في خضم الظلام الأبدي وفي زحام هذا الشخص هناك قلب تثقله أمواج الندم يسافر عبر قوارب قارعة الحرمان الطازجة، قلبًا يتفحص العودة بالزمن للوراء قليلًا، لكن ماذا ينفعني الندم الآن!.

وعلى شرف هذه الخاتمة غير السعيدة وأنا وحيد، وربما لست وحيدًا!.

فتؤنسني الذكريات وفتاةً تعيش بداخلي تجتاح خلاياي، فوجودها بين أضلعي يروي صراعي العطش نزعًا لطيفًا، وتغفي القمر الساطع في السماء وتجلس مكانه كل ليل تباهيًا، نامت شمسي الملتهبة ورحلت عالم الأحلام، وولدت شمس جديدة في حياتها من رحم فقداني لها، تشابهنا أخيرًا، فلبسنا الأبيض معًا، فهي ارتدت فستان الزفاف وأنا كفن الموت، مت أنا في الحياة وبقيت مسك وهي الآن تعيش حياتها السعيدة الحمد لله، لقد تحققت أمنيتها بالسعادة وطليقتي..

آه..

لا أعلم أهي السبب في انحلالنا أم أنا!.

كل ما أعلمه أنني الآن منعزل ككتاب لم يعد يقرؤه أحد، كنت أكتب في رواياتي البدايات الجميلة والنهاية تعيسة وها أنا أطبق ما كتبت، لم أكن أعلم أن النهايات الحزينة موجعة هكذا، لقد كان تصور خيالي جميلًا جدًّا عندما أفعل صراعًا موجعًا في رواياتي، حيث وجدتني أعيش الصراع ذاته الذي سردته يومًا، كنتُ غافلًا!.

كيف بي أخطُّ دائمًا نهايات حزينة وأطمع بنهاية سعيدة في حياتي!.

فتبًا لواقعي الذي أنا فيه في هذا الوضع..

وإلى هنا، انتهى الشغف وأغلقت ستار روايتي.

وماذا بعد؟!.

إنها النهاية، فلكل بداية نهاية، وهنا تنتهي رحلتي بعالم الروايات، وأنا انتهيت.

ختامًا، كلا ليس الختام، بل الوداع، فوداعًا.

«تمت بحمد الله وفضله»